الباب الثالث

الدارس

ذكرت مرارا فى الصفحات السابقة أن يونس بن حبيب درس "علوم العربية" أو عنى بها، ولم أحاول أن أحدد واحدا معينا من العلوم. وقد استخدم القدماء أنفسهم عبارة "علم العربية"، فأطلقوها على اللغة والنحو. ولكن هذا التصور – فى اعتقادى – قاصر، لا يتسع لكل ما تحدث فيه علماء هذا العصر، من "علماء العربية".

فالعصر الذى عاش فيه يونس عصر مبكر، كان "علماء العربية" يعنون فيه بأشياء متعددة، ولكنها جميعا تستهدف إبراز صورة المجتمع العربى الخالص فى جاهليته وإسلامه: لغته، أدبه، حياته، تقاليده، قيمه. وهى جميعا تعتمد على مابقى بين يديها من آثار هذا المجتمع من أجل بلوغ هدفها، ولم تجد من هذه الآثار غير "الشعر". وهى جميعا تنظر إلى الشعر نظرة واحدة، وتعامله معاملة واحدة، وتسلك طريقة واحدة فى استخلاص ما يعنيها من حقائق منه.

فقد كان الشعر عندهم[1]: "ديوان العرب، به حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله، وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديث صحابته والتابعين" ولذلك كان الشعر البرهان على صحة مايقال، ويدعم الأخبار التى يرد فيها[2].

فلا عجب أن تتداخل اهتمامات هؤلاء الدارسين "للمجتمع العربى" ولا تتضح اختصاصاتهم وضوحا كافيا، يجعلنا نعطى كلا منهم صفة واحدة. فإننا حين نحاول أن نصف ابن الكلبى وأبا عبيدة والمدائنى تستبد بنا الحيرة،إذ نجد فيما كتبوا

---

(١) السيوطى: المزهر ٢ : ٢٢٥ عن أحمد بن فارس. وانظر ابن سلام ٢٢.

(٢) عبيد بن شرية: أخباره ٣١٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، وغيرها.

تاريخا ولغة وأدبا..

وقد وقع القدماء أنفسهم فى مثل حيرتنا، ولم يتخلصوا منها إلا بابتكار وصف عام مبهم أطلقوه عليهم فهم عندهم "إخباريون"، يجمعون أخبار العرب المتنوعة الاتجاهات والطوابع، والتى لا تجعل من أحدهم مؤرخا خالصا، أو لغويا محضا، أو ناقدا بحتا أو ما إلى ذلك.

وإذا كان يونس بن حبيب لم يتسع الحقل الذى عمل فيه اتساعه عند الرجال الذين ذكرتهم، إلا أن حقله كان على شئ من الاتساع، وكان ما عنى بالاشراف عليه ورعايته فى هذا الحقل على شئ من التنوع.

وإذا كانت اهتمامات هؤلاء الرجال من التداخل بحيث لم يرض القدماء بالفصل بينها، ووضع الحدود المميزة لها، وأطلقوا عليها اسما جامعا، إلا أننى أوثر ألا أتبع القدماء فى ذلك، وأوثر محاولة الفصل بين الاتجاهات المختلفة التى سار فيها يونس، تيسيرا على القارئ، وتوضيحا للصورة، وتمهيدا لاعطاء كل جانب قدره من جوانب الرجل، بالرغم من إيمانى العميق بأن جميع هذه الجوانب لرجل واحد: فهى تترابط، بل تتواشج وتتداخل وتمتزج فتنتهى بأن تكون ذلك الرجل.

وأوثر أن أجمع هذه الجوانب فى فئتين: تلتصق أولاهما بالشعر: ترويه، وتفسره وتنقده؛ فصار الشعر بذلك مادتها وهدفها. وهى لذلك دراسة قد نسميها بالأدبية. أما الفئة الثانية فقد يليق بها اسم الدراسة اللغوية، إذ تستهدف اللغة والنحو. حقا إن هذه الدراسة تعتمد على الشعر أيضا، ولكنه مادتها حسب، أما هدفها فالكشف عن المسالك اللغوية التى سار فيها العرب فى تفاهمهم.

الفصل الأول

الدراسات الأدبية

الرواية

كان كل شيء في حياة يونس بن حبيب والمدينة التي عاش فيها، والعصر الذي كان أحد أبنائه، يدعوه إلى البحث عن الشعر العربي، وحفظه، وروايته.

فقد أخذ عن جماعة من الأعراب، كان بعضهم يقول الشعر مثل أبي مهدية، إن لم يكونوا كلهم من ناظميه. وأخذ عن جماعة من العلماء عرفوا برواية الشعر مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي الخطاب الأخفش، وضمت حلقته جماعة كبيرة من الشعراء، ومن العلماء بالشعر مثل خلف الأحمر، وهو من أشهر رواة الشعر. واتصل بجماعة من الشعراء مستفيدا منهم، مثل رؤبة وذي الرمة والفرزدق. واتصل به جماعة من الشعراء مستفيدين منه مثل مروان بن أبي حفصة.

لا عجب إذن أن يستجيب يونس لهذه الدعوة، ويعنى برواية الشعر. فأخذ الشعر القديم عن شيوخه، قال سيبويه[1]: "قال عمرو بن كلثوم:

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

أي على ذات اليمين. حدثنا بذلك يونس عن أبي عمرو، وهو رأيه". وأخذه أيضا عمن التقى منهم من العرب. قال سيبويه[2]: "زعم يونس أن العرب تنشد هذا

---

(١) الكتاب ١ : ٢٠١.

(٢) الكتاب ١ : ١٣١ . وانظر ٧٧ ، ١٤٠ ، ٢٥٠.

البيت لهدبة بن خشرم:

فإن تك في أموالنا لا نضق بها ذراعا، وإن صبر فنصبر للصبر"

وقال أيضا[1]: "زعم يونس أن ناسا من العرب يقولون:

أنصب للمنية تعتريهم رجالى أم هم درج السيول"

أما الشعر المعاصر له فأخذه من أفواه ناظميه. قال سيبويه[2]: "يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما أن رؤبة كان ينشد هذا البيت نصبا:

* فيها ازدهاف أيما ازدهاف*

وقال أيضا[3]: "زعم يونس أنه سمع الفرزدق ينشد:

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى

شغارة تقذ الفصيل برجلها فطارة لقوادم الأبكـــــار

وتدلنا الأبيات الباقية لدينا من رواية يونس أنه عنى بعصور الاستشهاد اللغوى كلها، وبالفصحاء من الشعراء على اختلاف مراتبهم واتجاهاتهم. فقد روى أبياتا من الشعر الجاهلى، بعضها من نظم كبار شعراء الجاهلية كأصحاب المعلقات ومن في مرتبتهم، مثل امرئ القيس وعمرو بن كلثوم والنابغة الذبيانى والأعشى وعبيد بن الأبرص. قال محمد بن سلام الجمحى[4]: "سألت يونس عن قول الله

---

(١) الكتاب ١ : ٢٠٧ . وانظر ٢٤ . والبيت لابراهيم بن هرمة. انظر ٢٠٦.

(٢) الكتاب ١ : ١٨٢. وانظر ١٦١.

(٣) الكتاب ١ : ٢٥٣.

(٤) المفضل بن سلمة: الفاخر ١٦٤.

تعالى ﴿انما أنت من المسحرين﴾ فقال: من المعللين، وأنشد لامرئ القيس:

عصافير وذبان ودود ونسحر بالطعام وبالشراب"

وروى أيضا لجماعة من أقدم من نعرف من شعراء الجاهلية مثل المستوغر بن ربيعة، والصعاليك مثل عروة بن الورد، وسكان الحضر مثل عدى بن زيد العبادى، والنساء مثل الخرنق أخت طرفة بن العبد. قال سيبويه[1]: "قال عروة الصعاليك:

سقونى الخمر ثم تكنفونى عداة ا لله من كذب وزور

إنما شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطبين. وقال النابغة:

لعمرى وما عمرى على بهين لقد نطقت بطلا على الأقارع

أقارع عوف لا أحاول غيرها وجوه قرود تبتغى من تجادع

وزعم يونس أنك – إن شئت – رفعت البيتين جميعا على الابتداء، تضمر فى نفسك شيئا لو أظهرته لم يكن ما بعده إلا رفعا".

ويبلغ الشعراء الاسلاميون الذين روى لهم أشعارا ضعف الجاهليين، ويزداد العدد إذا أضفنا اليهم المخضرمين. وقد روى للفحول منهم مثل لبيد والحطيئة والنابغة الجعدى وأبى ذؤيب الهذلى وجرير والأخطل وكثير والراعى وذى الرمة والعجاج وأبى النجم، فضلا عن رؤبة والفرزدق اللذين أولاهما من العناية مالم يوله لأحد، واعتمد على شعرهما اعتمادا لا يماثله اعتماده على شعر غيرهما. قال سيبويه: "أنشدنا يونس لجرير:

إياك أنت وعبد المسيح أن تقربا قبلة المسجد

---

(١) الكتاب ١ : ٢٥٢.

أنشدناه منصوبا وزعم أن العرب كذا تنشده"[1].

وروى لغير الفحول من الإسلاميين أيضا، دون أن يقتصر على فئة معينة منهم. فقد روى لشعراء الغزل مثل جميل بثينة؛ وشعراء الهجاء مثل اللعين المنقرى، ويزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى، وجرير بن خرقاء العجلى؛ وشعراء المديح مثل نصيب وعبد الله بن همام السلولى؛ وشعراء العواطف الشخصية مثل هدبة ابن الخشرم وأبى الأسود الدؤلى؛ وغيرهم من الخاملين مثل الجارود بن أبى سبرة وابن رياح الشارزنجى وأبى داود الرؤاسى.

قال سيبويه[2]: "قال الهذلى:

فقلت: تحمل فوق طوقك إنها مطبعة من يأتها لا يضيرها

هكذا أنشدناه يونس".

وامتد نطاق من روى يونس شعرهم واستشهد بهم حتى شمل بعض مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، مثل إبراهيم بن هرمة، الذى عده النحويون ساقة الشعراء وآخر من يستشهد بهم. أما العباسيون الخالصون الذين سموا بالمولدين فلم أجد يونس يروى لهم شيئا، بالرغم من اتصال بعضهم به كمروان بن أبى حفصة.

وإذا نظرنا فى قائمة الشعراء الذين روى لهم يونس تجلت لنا بعض الظواهر التى نستطيع أن نرصدها على النحو التالى:

كان القسط الأكبر من عناية الرجل موجها إلى الشعراء الاسلاميين، وخاصة من عاش منهم فى العهد الأموى. فعدد الجاهليين الخلص الذين روى لهم قليل جدا،

---

(١) الكتاب ١ : ١٤٠.

(٢) الكتاب ١ : ٤٣٨.

ولا يخرج عن نطاق الفحول غير هنى بن أحمر الكنانى والخرنق والمستوغر. والمخضرمون روى لأكابرهم ما عدا كعب بن زهير وحسان بن ثابت اللذين لم أجد شعرا لهما عنده. فإذا انتقلنا إلى العصر الأموى لم نكد نجد فحلا لم يرو له شيئا.

وبرز بين الأمويين رؤبة والفرزدق خاصة. أما رؤبة فقد كثر حديثى عنه ولا أحب أن أعود إلى ذلك. وأما الفرزدق فقد بلغ من اهتمام يونس به أن اضطر إلى الاهتمام بجماعة من الشعراء ما كان يأبه لهم لولاه. فقد كانوا على اتصال ما بالفرزدق، أو وقعت بينهم أحداث مشتركة، أرغمت الرجل على رواية بعض أشعارهم.

فلم أجد عنده لجرير بن خرقاء العجلى إلا ما رد به على الفرزدق. قال ابن سلام[1] : "روى عن يونس أن الفرزدق لما قال:

تصرم منى ود بكر بن وائل وما خلت دهرى ودهم يتصرم

قوارص تأتينى فيحتقرونها وقد يملأ القطر الإناء فيفعم

– وكان قد نزل عليهم حين هرب من ابن زياد – فقال جرير بن خرقاء يجيبه:

لقد بوأتك الدار بكر بن وائل وردت لك الأحشاء إذ أنت مجرم

ليالى تمنى أن تكون حمامة بمكة يغشاها الستار المحرم

فان تنأ عنا لا تضرنا وإن تعد تجدنا على العهد الذى كنت تعلم"

ولم أجد لنصيب غير الأبيات التى قالها للخليفة الأموى حين غضب من الفرزدق. قال المرتضى[2]: "أبو عبيدة عن يونس قال: دخل الفرزدق على سليمان

---

(١) المرتضى :الأمالى ١ : ٣٠٤.

(٢) الأمالى ١ : ٦٠.

ابن عبد الملك، وعنده نصيب الشاعر. فقال له سليمان: أنشدنى! فأنشده.. (أبياتا فى الفخر) فاسود وجه سليمان وغاظه فعله، وكان يظن أنه ينشده مديحا له. فلما رأى نصيب ذلك قال: ألا أنشدك؟ فأنشده:

أقول لركب قافلين لقيتهم ... قفاذات أوشال ومولاك قارب:

قفوا خبرونى عن سليمان إننى ... لمعروفه من أهل ودأن طالب

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فقال له سليمان: أنت أشهر أهل جلدتك. وفى بعض الأخبار أن الفرزدق قال ذلك فى نصيب حين سأله عنه سليمان".

بل بلغ من فرط عنايته بالفرزدق أن عنى بمن حاول أن يكون على صلة به ولم يفلح. روى ابن سلام[1]: "قال اللعين:

سأحكم بين كلب بنى كليب ... وبين القين قين بنى عقال

فإن الكلب مطعمه خبيث ... وإن القين يعمل فى سفال

وقد حسر البعيث وأقعدته ... لئيمات المناخر والسبال

ويترك جده الخطفى جرير ... ويندب حاجبا وبنى عقال

قال ابن سلام: وسمعت يونس يقول: فلم يلتفتا لفته، وأراد أن يذكراه فيرفعه ذلك، فقال:

فما بقيا على تركتمانى ... ولكن خفتما صرد النبال".

وإذا نظرنا فى الأشعار الباقية بين أيدينا من رواية يونس نجد أنها تمنحنا أسبابا

---

(١) الطبقات ٣٤٢.

متعددة حدت به إلى العناية بها. وأول هذه الأسباب الاستشهاد بها في ميداني النحو واللغة. فقد كان كثير من هذه الأشعار يضم ظواهر لغوية خاصة لفتت نظر ذلك الرجل المعنى يرصد هذه الظواهر، فعنى بها وتتبعها ومحصها. وعندما أحس سيبويه منه ذلك اتخذ منه أحد مراجعه في الشواهد. قال البغدادي[1]: "فاعتمد [سيبويه] على شيوخه، ونسب الانشاد إليهم، فيقول: أنشدنا، يعنى الخليل؛ ويقول: أنشدنا يونس.. ". ومثال ذلك ما رواه سيبويه قال[2]: "نظير هذا النصب من الشعر قول الخرنق:

لايبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر

النازلين بكل معـــترك والطيبون معاقد الأزر

فرفع الطيبين .. وزعم يونس أن من العرب من يقول:

النازلون بكل معترك والطيبون

فهذا مثل والصابرين في قوله تعالى: "والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس".

وكان سبب عنايته ببعض الأشعار اتصالها ببعض الأخبار التي يعنى بها، مؤيدة لها، ومتممة لوقائعها، وموضحة لأحداثها. وإذ كان يونس شديد الاهتمام بالأخبار كان غير عجيب أن يعنى بهذه الأشعار وفق ما شاع عنه عند العرب من مناهج وتصورات. مثال ذلك ما رواه الجاحظ عن أبي عبيدة قال[3]: "حدثني يونس قال:

---

(١) خزانة الأدب ١ : ٣٣٣.

(٢) الكتاب ١ : ٢٤٩.

(٣) الحيوان ٧ : ٨٣.

لما بنى فيل مولى زياد داره وحمامه بالسبابجة عمل طعاما لأصحاب زياد، ودعاهم إلى داره وأدخلهم حمامه. فلما خرجوا منه غداهم ثم ركب وغبر فى وجوههم. فقال أبو الأسود الدئلى:

لعمر أبيك ما حمام كسرى على الثلثين من حمام فيل

وقال الجارود بن أبى سبرة:

وما إرقاصنا خلف الموالى كسُنّتنا على عهد الرسول"

ونستطيع أن نتبين فئة ثالثة من الشعر كان الإعجاب هو الذى ساق يونس إلى حفظها وروايتها. ومثالها ما حكاه ابن خلكان[1]: "قال يونس: تقول العرب: فرقة الأحباب سقم الألباب. وأنشد:

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب

لم يبلغا المعشار من حقيهما شرخ الشباب وفرقة الأحباب"

ويتجلى لنا فى هذه الأشعار أيضا أن أكثرها أبيات مفردة، أو بيتان. ولا نعجب كثيرا لغلبة هذه الظاهرة على ما أورده سيبويه منها، لأنه فعل ذلك إذ عدها شواهد. ولم يعن النحويون فى شواهدهم عادة إلا بالبيت الذى يمثل القاعدة النحوية التى يتحدثون عنها. ونستدل من هذا أن الاقتصار على البيت والاثنين ربما كان من يونس نفسه فى أثناء علاجه النحو، وربما كان من سيبويه الذى اختار من رواية يونس ما فيه الشاهد النحوى، وإن كنت أميل إلى الظن الأول.

وأما مرويات يونس فى غير كتاب سيبويه فلا تقتصر على الأبيات، بل

---

(١) ٢ : ٤١٧ . ابن العماد: شذرات الذهب ١ : ٣٠١ .

تطول وتصير مقطوعات، وخاصة فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام. روى عن يونس مرة [1]: "أن يزيد بن ربيعة بن مفرغ كان رجلا من يحصب، وكان عديدا لبنى أسيد بن أبى العيص بن أمية، وكان منزله بالبصرة، وكان شريرا هجّاء للناس. فصحب عباد بن زياد – وعباد يومئذ على سجستان، عاملا لعبيد الله بن زياد، وعبيد الله يومئذ على البصرة لمعاوية – فهجا ابن مفرغ عبادا، فبلغه. وكان على ابن مفرغ دين، فاستعدى عليه. فباع عباد ماله فى دينه وقضى الغرماء. وكان فيما بيع عليه غلام يقال له برد، وجارية يقال لها أراكة، فقال:

أصرمت حبلك من أمامه ... من بعد أيام برامه
تركى سعيدا ذا الندى ... والبيت ترفعه الدعامه
وتبعت عبد بنى علا ... ج ، تلك أشراط القيامه
جاءت به حبشية ... سكاء تحسبها نعامه
من نسوة سود الوجو ... ه ترى عليهن الدمامه
وشريت بردا، ليتنى ... من بعد برد كنت هامه
يا هامة تدعو الصدى ... بين المشقر واليمامه
العبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه الملامه
والريح تبكى شجوها ... والبرق يلمع فى الغمامه
ورمقتها فوجتها ... كالضلع ليس له استقامه

وأمثال هذه المقطوعة، وما يقل عنها، وما يزيد، غير قليل فى الطبقات. ونشعر فى بعضها أن يونس ربما روى القصيدة كلها، فاقتصر ابن سلام على ما

---

(١) الطبقات ٥٥٤.

أورده منها. ولعل الخبر التالى يبين أن يونس روى بعض القصائد المفرطة فى الطول. قال السيوطى[1]: "زعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد. وقال: إنما هو كلام، وأجودهم كلاما أشعرهم، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول: لو كان مكانه غيره لكان أجود. وذكر أنه صنع أرجوزته:

* قد جبر الدين الاله فجبر*

فى نحو من مئتى بيت، وهى موقوفة مقيدة، ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها".

وكثرة الأخبار بين رؤبة والفرزدق ويونس، وتحدثه عنهما، واستشهاده بشعرهما، وحكايته أخبارهما، تجعلنى أميل إلى أنه كان يحفظ كثيرا من شعرهما إن لم أقل ديوانيهما. ولكننى لم أعثر فى أى من المراجع التى أفدت منها على أنه روى ديوانيهما، بل لم أعثر على من ذكر أنه روى ديوان شاعر جاهلى أو إسلامى. ويبدو لى أن يونس لم يكن ممن عنوا برواية الشعر لذاته، وإنما كان اهتمامه به من أجل ما يحتوى عليه من لغة ونحو وأخبار، فروى منه ما اتصل باهتماماته هذه، ولم يأبه لرواية ديوان كامل لشاعر مثل أستاذه أبى عمرو بن العلاء أو تلاميذه مثل الأصمعى وأبى عبيدة وخلف الأحمر. ولكن هذا لم يمنعه أن يكون له نظر فى الشعر يسّر له نقد بعض الشعراء كزهير بن أبى سلمى والنابغة الجعدى وعبيد الله بن قيس الرقيات.

وقد أثار بعض ما رواه يونس عواصف من النقد، والخصومة بين الدارسين والأدباء. فقد روى محمد بن سلام[2] عن يونس الأبيات التالية التى نسبها إلى

---

(١) المزهر ٢ : ٤٨٤.

(٢) الطبقات ٢٩.

المستوغر بن ربيعة بن كعب التميمى، الذى عده من أقدم الشعراء العرب الموثوق من وجودهم:

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وازددت من عدد السنين مئينا
مئة أتت من بعدها مئتان لى ... وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقَا إلا كما قد فاتنا ... يوم يكر وليلة تحدونا

وانتهز الدكتور طه حسين[1] هذه الفرصة السانحة وطعن ابن سلام طعنة قاصمة. فقد رأى فيه واحدا من أكبر العلماء الذين شعروا بما وقع فى الشعر من انتحال، وتتبع الشعر المنتحل، ونبه عليه. وبالرغم من ذلك، غفل عن بعض هذا الشعر وانخدع به، فوثق به وما كان مستحقا لهذه الثقة. والحق مع الدكتور طه، فواضح على الأبيات أنها من الشعر الشعبى، الذى كانت تزخر به القصص الذائعة بين العرب يسمرون بها فى لياليهم، وتدور حول المعمرين، كما يكشفها كتاب أبى حاتم السجستانى. ويؤيدنا فى هذه النظرة الأثر الذى تركته اللهجة القبلية فى الفعل (بقا) إذ لم يأت على اللغة الفصيحة (بقى).

كذلك خالف يونس بعض العلماء فى نسبة بعض ما رواه من شعر. فقد نسب الحائية المشهورة إلى عبيد بن الأبرص. قال ابن سلام[2]: "أخبرنى يونس بن حبيب قال: قيل لذى الرمة: من أحسن الناس وصفا للمطر؟ فذكروا قول عبيد:

دان مسف فويق الأرض هيدبه ... يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بمحفله ... والمستكن كمن يمشى بقراوح

---

(١) فى الأدب الجاهلى ١٥٥. وانظر طه أحمد ابراهيم : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٨٧.

(٢) الطبقات ٧٦.

فجعلها يونس لعبيد، وعلى ذلك كان اجتماعنا فلما قدم المفضل صرفها إلى أوس ابن حجر".

ويتضح من قول ابن سلام أن يونس لم ينفرد بقوله بل كان تابعا فيه لجماعة أهل البصرة، فلما جاء المفضل الكوفي صرفهم عن رأيهم. ويبدو أن غلبة رأى المفضل كانت تامة بحيث أوقعت بعض العلماء في الخطأ، إذ عُمم هذا الرأى وشمل به يونس نفسه. قيل في ذيل الأمالي والنوادر[1]: "محمد بن سلام قال: سمعت يونس النحوى يقول في قوله جل وعلا: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾ ننجيك: نجعلك على نجوة من الأرض، وهى المكان المرتفع. ببدنك: بدرعك. وأنشد لأوس بن حجر:

دان مسف . . . . . ".

ونسب ميمية للنابعة الجعدى فخالفه تلميذه أبو عبيدة. قال ابن سلام[2]: "قلت ليونس: كيف تقرأ: "وجئتك من سبأ بنبأ يقين" فقال: قال الجعدى، وهو أفصح العرب:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما

– وهو على قراءة أبى عمرو ويونس – فجعل يونس القصيدة للجعدى. ثم أتينا خلفا الأحمر فسألناه فقال: للنابغة، وقد يقال لأمية". ويبدو من العبارة الأخيرة أن خلفا يرجح قول أستاذه يونس.

وفطن يونس إلى أن من أسباب الاختلاف في نسبة بعض الأبيات ما تعوده الشعراء من التمثل في قصائدهم ببعض أبيات السابقين عليهم دون أن يقصدوا إلى

---

(١) ١٨.

(٢) الطبقات ١٠٦.

سرقتها أو إخفاء أمرها على القارئ. قال ابن سلام[1]: "أخبرنى خلف أنه سمع أهل البادية من بنى سعد يروون بيت النابغة للزبرقان بن بدر. فمن رواه للنابغة قال:

تعدو الذئاب على من لا كلاب لـــه وتتقى مربض المستنفر الحامـــــى

ومن رواه للزبرقان بن بدر قال:

إن الذئاب ترى من لا كلاب لـــــه وتحتمى مربض المستنفر الحامـــــى

... وسألت يونس عن البيت فقال: هو للنابغة، أظن الزبرقان استزاده فى شعره كالمتمثل حين جاء موضعه لا مجتلبا له".

وإذا كانت بعض مرويات يونس أثارت خلافا كبيرا، فإن بعض أحكامه المتصلة بالرواية أثارت خلافات أخرى، بل ضلل بعضها العلماء آمادا طويلة. فقد كان أحد الذين أطلقوا القول أن لبيد بن ربيعة العامرى سكت عن الشعر بعد الاسلام. قال ابن خلكان[2]: "قال يونس: لم يقل لبيد فى الاسلام سوى بيت واحد، هو:

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلـــــــــى حتى لبست من الاسلام سربالا"

ويدور حول هذا القول خلاف قديم وحديث. أما الخلاف القديم فيتناول البيت الواحد الذى قاله لبيد فى الاسلام، وهل هو ما رواه يونس أو غيره؛ والبيت الذى رواه يونس: هل هو للبيد حقا أو لغيره. فقد خالف بعض الرواة يونس[3]،

---

(١) الطبقات ٤٨.

(٢) الوفيات ٢ : ٤١٧.

(٣) انظر النقاش الطويل لقول يونس عند يحيى الجبورى فى كتابيه: لبيد بن ربيعة العامرى ٤٩ - ٥٧ وشعر المخضرمين ٢٣٣.

وقالوا إن البيت الذى قاله لبيد فى الإسلام هو:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

وخالفه بعضهم الآخر فذكر أن البيت الأول ليس من نظم لبيد بل من نظم قردة بن نفاثة السلولى.

ويدور النقاش الحديث حول صحة قول يونس كله. فقد وجد المحدثون فى شعر لبيد ما شككهم فيه. وجدوا فيه ماقاله حين بلغ ٧٧ سنة:

قامت تشكى إلى النفس مجهشة ... وقد حملتك سبعا بعد سبعين

فان تزادى ثلاثا تبلغى أملا ... وفى الثلاث وفاء للثمانين

وما قاله حين بلغ ٩٠ سنة:

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها عن مكنبى ردائيا

وما قاله حين بلغ ١١٠ سنة:

أليس فى مئة قد عاشها رجل ... وفى تكامل عشر بعدها عمر؟

على حين أنه قضى فى الجاهلية ٦٠ سنة من عمره فقط. ووجدوا فيه ما قاله أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوه أن يدعو الله لانزال الغيث، وما رثى به أخاه أربد بعد إسلامه. ووجدوا فيه كثيرا من المعانى الاسلامية التى استقاها من القرآن والحديث والجو الاسلامى، مثل قوله:

إن تقوى ربنا خير نفل ... وباذن الله ريثى وعجل

أحمد الله فلا ند له ... بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال ومن شاء أضل

وقوله:

رأيت التقى والحمد خير تجـــــارة رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقـــــلا

وغيرهما، مما يؤكد خطأ قول يونس.

كذلك أطلق يونس القول فى ثلاثة من الخلفاء الراشدين. قال أبـو عبيـدة[1]: زعم يونس أن عليا وعمر وعثمان رضى الله عنهم لم يقولوا شعرا إلا أن يقولوا بيتا.

ويضعنا هذا القول أمام مشكلة عويصة اختلف فيها العلماء، فكان منهـم مـن أيد يونس تأييدا كاملا أو فى بعض قوله مثل حكمه على عثمـان. وكـان منهـم مـن اختلف معه مثل ابن رشيق الذى قال[2]: "فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهـم ما منهم إلا من قال الشعر"، وقال عن عمر[3]: "كـان مـن أنقـد أهـل زمانـه للشـعر وأنفذهـم فيـه معرفـة"، وقـال عـن علـى[4]: "كـان مجـوِّدا".وروى لهـم عـدة قصـائد وأبيات. وبين أيدى العلماء الآن ديوان كامل منسوب إلى علـى. فإذا كـان الشـك يحوط قدرا، يختلف فيه العلماء، من قصائده، فإنه لايرقى إليه جملة.

ووجدت ليونس بعض الأقوال التى تدل على أنه نظـر فـى الروايـة والـرواة، ورصد بعض الظواهر التى ظهرت له.

أما الرواية فيبدو أنه كان مؤمنا بما قال أستاذه أبو عمرو بن العلاء عـن كـثرة الشعر العربى فى الجاهلية، وكثرة ما ضاع منه فى أثناء انتقاله إليهم. فقـد كـان هـو

---

(١) مجاز القرآن ٢ : ١٥٩ (الحواشى).

(٢) العمدة ٣٥. وانظر كتاب الاسلام والشعر ليحيى الجبورى ٧٩-١٢٨.

(٣) العمدة ٣٣.

(٤) العمدة ٣٤.

الذى نقل عن أبى عمرو قوله[1]: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير". وكان هذا القول واحدا من الأقوال التى نشرت بين الناس تصور سهولة نظم الشعر على العربى، حتى كاد كل عربى يكون شاعرا عندهم.

ونقل أبو عبيدة عن أستاذه يونس أن أبا عمرو اعترف بانتحال أحد أبيات الشعر. قال أبو عبيدة[2]: قال يونس: قال أبو عمرو بن العلاء: أنا الذى زدت بيت الأعشى فى شعره – يعنى:

وأنكرتنى وما كان الذى نكـــرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فسار فى الناس وذهب فأتوب إلى الله منه. وقال: لم أزد فى أشعار العرب غيره".

ولكننى لا أقطع بصحة هذا القول. فقد روى تلميذ آخر ليونس ما يشكك فى صدوره عنه، ويجعلنا نميل إلى أن بعض تلاميذه وضع هذا القول على فمه إنقاصا من قدر أبى عمرو. ويزداد الشك بنا حين نذكر أن أبا عبيدة كان شعوبيا يتغنى "بمثالب العرب"، ويحاول أن ينتقص من كبارهم. يستطرد ابن الأنبارى بعد إيراده رواية أبى عبيدة فيقول: "وقال محمد بن سلام الجمحى: وحدثنى جوان قال: قال يونس: قال أبو عمرو: وأنا الذى قلت هذا البيت:

وأنكرتنى . .

قال: فلقيت يونس فسألته: من الذى يقول هذا البيت؟ فقال: الأعشى . فقلت: ما قول أبى عمرو فيه؟ فقال: قال أبو عمرو: وما بقى بعد الشيب والصلع؟

---

(١) ابن سلام: الطبقات ٢٣. ابن جنى: الخصائص ١ : ٣٨٦. ابن الأنبارى النزهة ١٧.

(٢) مجاز القرآن ١ : ٢٩٣. ابن الأنبارى: شرحه للمفضليات ٥٦٥.

كان ينبغى أن يتأنى لأن يقول الذى نكرت الشيب والصلع". فيونس ينسب البيت صراحة للأعشى، ولايعرف قولا لأبى عمرو فيه غير نقد معناه.

وتصدى يونس بن حبيب لاثنين من رواة الشعر بالنقد والتكذيب. أما أولهما فبزرج بن محمد النحوى الكوفى، الذى هاجمه هجوما مقنعا، إذ قال عنه[1]: "إن لم يكن بزرج أروى الناس فهو أكذب الناس" . ويبدو أن كثيرا من العلماء يوافقون يونس فى رأيه فى الرجل. قال المازنى[2]: "روى بزرج بن محمد العروضى شعرا لامرئ القيس. فقال له جناد: عمن رويت هذا؟ قال: عنى، وحسبك بى. فقال له جناد: من هذا أُتيت ياغافل".

وأما الثانى فالراوية الذى واجهته السهام من كل علماء البصرة، وهو حماد الراوية. ولم يتقنع يونس فى مهاجمته بل رماه فى قسوة وعنف. قال ابن سلام[3]: "سمعت يونس يقول: العجب لمن يأخذ عن حماد، كان يكذب ويلحن ويكسر" وزاد غير ابن سلام[4]: "ويصحف". وذكر أبو عبيدة أن يونس قال أيضا[5]: "قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة، وهو عليها، فقال: ما أطرفتنى شيئا. فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبى موسى. فقال: ويحك! يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروى شعر الحطيئة؟! ولكن دعها تذهب فى الناس".

ولكن هذه الأقوال لقيت معارضة من كثيرين، كشف عنها الدكتور ناصر

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٧٢.

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٧٣.

(٣) الطبقات ٤١.

(٤) أبو الطيب: المراتب ٧٣. الجاحظ : رسائله ٢: ٢٦٦. السيوطى: المزهر ١ : ١٧٦.

(٥) ابن سلام: الطبقات ٤١. السيوطى: المزهر ١ : ١٧٦.

الدين الأسد[1] فى درسه لنظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى. فقد أبان أن القصيدة التى حكم عليها يونس بالانتحال رواها محمد بن حبيب عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى معا[2]، وأثبتها المدائنى البصرى، وذكر[3] "أن الحطيئة قال هذه القصيدة فى أبى موسى، وأنها صحيحة، قالها فيه وقد جمع جيشا للغزو". وكشف عما فى القول الأول من دغَل، على ضوء التناقض بينه وبين أقوال العلماء الآخرين. فقد قيل إن المفضل الضبى قال عنه[4]: "رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره.. فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد" وقيل إنه [5] كان "من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها". فأى هذه الأقوال يصدق على الرجل؟!

ونخلص من هذا بأن يونس بن حبيب لم يكن الرجل الذى يمكن أن يلقب بالراوية، أريد لم يكن الرجل الذى جعل همه البحث عن الشعر والسعى وراءه وحفظه وروايته لذاته دون هدف وراءه. فلم تتعد روايته الأبيات التى تشهد لظواهر لغوية ونحوية، والمقطوعات التى تتصل ببعض الأخبار التى عنى بها، والقصائد التى اتصل بمن نظمها. ولم يتجاوز جهده إلى رواية مجموعة من الأشعار أو ديوان لشاعر.

وقد أوقعه ذلك فى بعض المشاكل فى نسبة بعض الأبيات التى عزاها إلى

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ٤٣٨ - ٤٥٠.

(٢) ديوان الحطيئة ٣٤.

(٣) الأغانى ٢ : ١٧٦.

(٤) الأغانى ٦ : ٨٩.

(٥) ياقوت: معجم الأدباء ١٠:٢٥٨.

أناس فلم يتابعه الناس وآثروا قول غيره كالمفضل. وأوقعه فى بعض الأخطاء التى شاعت وضللت العلماء أمدا طويلا. وأوقعه أيضا فى بعض الخطأ فى الحكم على الرواة الذين نقد روايتهم دون أن يكون متبحرا مثلهم فيها أو نظيرا لهم فى العناية بها.

ويؤدى بنا ذلك إلى عدم تصديق ياقوت[1] حين يطرى يونس فى حفظ الأشعار وروايتها فيعلن أنه كان: "حافظا لأشعارهم". فإن ما بين أيدينا من آثاره لايكفى لأن نقرنه بمن نعرفه من رواة الشعر.

ونخلص أيضا إلى أنه يجب الاحتراس فيما ينقل عن الرجل، إذ يبدو أن بعض تلاميذه نسبوا إليه مالم يقله لهوى فى نفوسهم الضعيفة الحاقدة.

الأخبار

يروى الرواة أن عمر بن الخطاب قال[2]: "الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه"، وأن معاوية بن أبى سفيان قال[3]: "الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها".

إذن كان الشعر – فى خلد العرب – فى القرن الأول السجل الذى يحفظ معارف العرب، وأقوالهم وأعمالهم؛ وأنه لم يقاربه سجل آخر فى هذا العمل؛ وأن من سعى أن يعرف شيئا عنهم فعليه بشعرهم.

وإذا كانت الأقوال التى عثرنا عليها من القرن الأول وتعرض هذه الصورة

---

(١) معجم الأدباء ٢٠: ٦٥.

(٢) ابن رشيق: العمدة ١ : ٢٧.

(٣) أخبار عبيد بن شرية ٣٥٢.

للشعر قليلة ومجملة، فإنها صارت فى القرن الثالث كثيرة، ومفصلة، بحيث لا تدع ريبا لمرتاب. قال الجاحظ[1]: "فكل أمة تعتمد فى استبقاء مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال. وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك ديوانها". وقال ابن قتيبة[2] عن الشعر: ان الله جعله لعلوم العرب مستودعا، ولآدابها حافظا، ولأنسابها مقيدا، ولأخبارها ديوانا لايرثّ على الدهر ولا يبيد على مر الزمان.

كانت صورة الشعر على هذه الهيئة فى القرن السابق على يونس، والقرن اللاحق عليه، صورة واحدة لا تزيدها الأيام إلا ثباتا وبروزا وجلاء تفاصيل. فلا عجب أن يروى يونس عن أستاذه القول الذى رواه وأوردته فى الفصل السابق، وأكتفى منه هنا بجزئه الأخير: ولو جاءكم [ما قالت العرب] وافرا لجاءكم علم وشعر كثير.

تؤدى بنا هذه الصورة إلى النتيجة الطبيعية – والواقعة فى حياة العرب – أن من اشتغل برواية الشعر العربى، فاهما لمعانيه، مدركا لمراميه، كان العارف بأخبار العرب أو ما اعتقد العرب أنه أخبارهم؛ وأن من سعى وراء معرفة أخبار العرب كان واجبا عليه البحث عن شعرهم أولا. فالبحث عن الشعر العربى والسعى وراء أخبار العرب هدفان لكن طريقهما واحد. فإذا ما سلكه عالم واع أدرك الهدفين معا. ولست أشك فى وعى يونس، فكان لذلك حافظا للشعر، عارفا بالأخبار. بل لقد

---

(١) الحيوان ١ : ٧١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٤.

أثر اجتماع هذين الأمرين فى مزاجه وتذوقه للشعر، فدفعاه إلى الإعجاب بالشعر الذى يفى بهما. فوجد أمامه شعر الفرزدق لايماثله شعر فى هذا الجانب. فالتزمه، وتتبعه، وأحبه، رافعا شعاره[1]: "لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس".

وتدل الأخبار الباقية من رواية يونس أنه استقى بعضها من شيخه أبى عمرو؛ وأنه استقى منه أخبارا متنوعة الطابع. فقد كان منها ما تؤمن العرب أنه تاريخها القديم. روى عنه مثلا قوله [2]: "العرب كلها ولد إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم"، وما حكاه عن براقش التى يضرب بها المثل[3]. وكان منها القصص الشعبية الجارية على الألسنة تفسيرا لمثل[4] .

كذلك استقى يونس بعض أخباره من رجل آخر غير مشهور، ولكنه كان على معرفة واسعة بالأحداث التى أخذها يونس عنه. قال أبو عبيدة فى بعض أخباره[5]: "فحدثنى سلام بن أبى خيرة قال: سمعته أيضا من أبى الخنساء كسيب العنبرى يحدث يونس النحوى – وكان علامة أهل البصرة".

ويدل ما أخذه يونس عن أبى عمرو أنه كان له مشاركة فى العناية بهذين اللونين من الأخبار اللذين ذكرتهما. وفعلا نجد بين المرويات واحدا أو اثنين نستطيع أن نضعهما تحت النوع الأول غير أنه لم يصرح بمصدره. ولعله يروى الخبر التالى عن أبى عمرو أيضا، إذ انه متصل بالخبر الذى سقته آنفا. قال ابن

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١ : ٣٢١.

(٢) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١٠.

(٣) الميدانى: مجمع الأمثال ١: ٤٧٥.

(٤) نفس المرجع ١ : ٤٩٧.

(٥) شرح نقائض جرير والفرزدق ٧٣٤.

سلام[1]: "قال يونس بن حبيب: أول من تكلم بالعربية، ونسى لسان أبيه، إسماعيل ابن ابراهيم، صلوات ا لله عليهما". ويبدو أن الرجل كان قليل الاهتمام بمثل هذه الأخبار، فلا تكثر عنده بل لا تتعدد.

أما النوع الثانى – أعنى القصص الشعبية – فأكثر عددا، وتنوعا. ولعل السبب فى ذلك اتصال أكثرها بالأمثال التى ألف فيها يونس كتابا.

وأكثر الأخبار الباقية لدينا من القصص الشعبية ما دار حول العلاقات الفردية، وخاصة بين الرجال والنساء: أزواجا كانوا أو آباء وأبناء، أو أقارب. مثال ذلك ما قاله فى تفسير المثل القائل (جاورينا واخبرينا) قال [2]: "كان رجلان يتعشقان امرأة. وكان أحدهما جميلا وسيما، وكان الآخر دميما تقتحمه العين. فكان الجميل منهما يقول: "عاشرينا وانظرى إلينا". وكان الدميم يقول: "جاورينا واخبرينا". فكانت تدنى الجميل. فقالت : "لأختبرنهما". فقالت لكل واحد منهما أن ينحر جزورا. فأتتهما متنكرة. فبدأت بالجميل فوجدته عند القدر يلحس الدسم ويأكل الشحم، ويقول: "احتفظوا كل بيضاء ليه" يعنى الشحم. فاستطعمته فأمر لها بثيل الجزور فوُضع فى قصعتها. ثم أتت الدميم، فإذا هو يقسم لحم الجزور ويعطى كل من سأله. فسألته، فأمر لها بأطايب الجزور فوضع فى قصعتها. فرفعت الذى أعطاها كل واحد منهما على حدة. فلما أصبحا غدوا إليها، فوضعت بين يدى كل واحد منهما ما أعطاها. وأقصت الجميل وقربت الدميم ويقال: إنها تزوجته. يضرب فى القبيح المنظر الجميل المخبر".

وكان من القصص الشعبية التى اتسع انتشارها بين العرب وأقبلوا عليها

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٩ . السيوطى : المزهر ١ : ١٧٤.

(٢) الميدانى : مجمع الأمثال ١ : ١٦٩.

إقبالا لا نظير له ما دار حول العشاق، والعذريين منهم خالصة. وكان ليونس أدنى مشاركة فيها، فقد نسبت إليه رواية إحدى هذه القصص. قال السراج[1]: "عن يونس قال: انصرفت من الحج فمررت بماوية، وكان لي فيها صديق من بني عامر ابن صعصعة، فصرت إليه مسلما فأنزلني، فبينما أنا عنده، ونحن قاعدان بفنائه، إذا نساء مستبشرات وهن يقلن: "تكلم تكلم " فقلت: "ماهذا ؟" فقالوا: "فتى منا كان يعشق ابنة عم له، فزُوجت وحملت إلى ناحية الحجاز. فإنه لعلى فراشه منذ حول ما تكلم ولا أكل إلا أن يؤتى بما يأكله ويشربه. فقلت: "أحب أن أراه". فقام وقمت معه. فمشينا غير بعيد وإذا بفتى مضطجع بفناء بيت من تلك البيوت لم يبق منه إلا خيال. فأكب عليه الشيخ يسأله وأمه واقفة. فقالت: " يامالك، هذا عمك أبو فلان يعودك". ففتح عينيه وأنشا يقول:

ليبكني اليوم أهل الود والشفق ... لم يبق من مهجتي إلا شفا رمق
اليوم آخر عهدي بالحياة فقد ... أطلقت من ربقة الأحزان والقلق

ثم تنفس الصعداء فإذا هو ميت. فقام الشيخ وقمت فانصرفت إلى خبائه، فإذا جارية بضة تبكي وتتفجع. فقال الشيخ: "مايبكيك؟" فأنشأت تقول:

ألا أبكي لصب شف مهجته ... طول السقام وأضنى جسمه الكمد
ياليت من خلف القلب الهيوم به ... عندي فأشكو إليه بعض ما أجد
انشر تربك أسرى لي النسيم به ... أم أنت حيث يناط السحر والكبد

ثم انثنت على كبدها وشهقت فإذا هي ميتة. قال يونس فقمت من عند الشيخ وأنا وقيذ".

---

(١) مصارع العشاق ١ : ٤٠.

والخبر يسير على النمط الشائع فى هذه القصص، ولا يخالفه أدنى خلاف.

وشارك يونس فى نوع آخر من القصص الشعبية كان له رواجه فى ذلك العصر، أعنى قصص الحيوان، أو القصص التى تتخذ من الحيوان أبطالا لها؛ وهى كثيرة وخاصة فى الأمثال. روى الميدانى[1] فى تفسير المثل القائل: (لا أحب تخديش وجه الصاحب): "قال يونس: تزعم العرب أن الثعلب رأى حجرا أبيض بين لصبين فأراد أن يغتال به الأسد. فأتاه ذات يوم فقال: يا أبا الحارث، الغنيمة الباردة: شحمة رأيتها بين لصبين، فكرهت أن أدنو منها، وأحببت أن تتولى ذلك أنت فهلم لأريكها: فانطلق به حتى قام به عليه. فقال: دونك يا أبا الحارث. فذهب الأسد ليدخل فضاق به المكان. فقال له الثعلب: أردس برأسك. أى أدفع برأسك. فأقبل الأسد يردس برأسه حتى نشب، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر. ثم أقبل الثعلب يخوره، أى يخدش خورانه من قبل دبره. فقال الأسد: ما تصنع يا ثعالة. قال: أريد لأستنقذك. قال: فمن قبل الرأس إذن. فقال الثعلب: لا أحب تخديش وجه الصاحب. يضرب للرجل يريك من نفسه النصيحة ثم يغدر".

ولا نستطيع أن ندعى ليونس منهجا ينفرد به فى روايته لهذه القصص الشعبية الدائرة على الألسنة، ولا طريقة ذات خصائص متميزة عن غيره. فمثله فيها مثل كل من رواها، يقتصر على الرواية دون النقد، ولا يحاول عليها تعليقا بالتصديق أو التكذيب.

ومهما يكن من شىء فما بقى لدينا منها قليل، لايمكن الاعتماد عليه فى استخلاص شىء ذى بال عن يونس. ويبدو لى أن هذه القلة ناتجة عن عدم إعطاء

---

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٩١.

يونس هذه الأخبار ما أعطاه غيرها من اهتمام. فإننا إذا قارنا بين ماوصل إلينا منها وما وصل من أخبار الشعراء وجدنا أخبار الشعراء أضعاف النوع الأول من القصص. ولنا الحق أن نقول إن أخبار الشعراء كانت الاهتمام الأول ليونس، وإن غيرها إنما كان أمرا عارضا. لا أستثنى من ذلك غير ما تضمنته الأمثال، إذ اضطر إلى العناية بها فى كتابه.

وعندما ننظر فيما بقى بين أيدينا من أخبار الشعراء نفاجأ بظاهرة لافتة للنظر، وهى أن شيئا منها لا يعود إلى الوراء البعيد، ولا ينظر إلى الحاضر القريب. فلم أعثر على خبر رواه يونس عن شاعر عباسى. وقد يكون هذا شيئا طبيعيا، فإن النحويين من أمثاله عدوا هؤلاء الشعراء مولدين، ومنعوا الاستشهاد بأقوالهم، ولم يعترفوا بهم. والاستثناء الوحيد خبر عن قرشى لم يذكر اسمه، وليس فيه ما يجعله جديرا بالرواية. ولعل يونس فعل ذلك تملحا. قال ابن سلام[1]: "حدثنا يونس قال: كنا على باب ابن عمير، فمرت بنا امرأة يدفع بعضها بعضا كأنها خائفة. فما لبثنا أن أقبل فتى من قريش عليه قميص قوهى ورداء. فلما رآنا ارتدع، فقلنا: ها هنا طلبتك. فتبعها وقال:

إذا سلكت قصد السبيل سلكتـــــه وإن هى عاجت عجت حيث تعوج".

ولم أعثر – للعجب – على واحد يرويه يونس من أخبار الجاهليين، وهم أول من يستشهد بهم فى النحو.

وإنما أقدم من حكى أخباره من الشعراء: المخضرمون مثل الحطيئة وعبد الله ابن همام السلولى وأبى الأسود الدؤلى. قال ابن سلام: " أخبرنى يونس النحوى

---

(١) السيرافى: أخبار النحويين البصريين ٢٨.

قال: خرج الحطيئة مع ابنته مليكة، وامرأته أمامة، على ذود له ثلاث، فنزل منزلا وسرح زوده. فلما قام للرواح فقد إحداهن، فقال[1]

أذئب القفر أم ذئب أنيس ... أصاب البكر أم حدث الليالى

ونحن ثلاثة، وثلاث ذود، ... لقد جار الزمان على عيالى"

ثم يستأثر الأمويون بأغلبية الأخبار. وأشعر أنى أتجوز فى هذا القول، وأوسع النطاق أكثر مما يجب. فما وجدت إلا خبرا واحدا عن أكثر الشعراء الذين تحدث عنهم، مثل كثير عزة، وأبى دؤاد الرؤاسى. قال ابن سلام: "حدثنى يونس بن حبيب قال: وقعت حرب بين عقيل بن كعب ونمير بن عامر، فلم يقم لهم بنو عقيل، وجعلت نمير تسرف عليهم. فلما رأت ذلك بنو كعب وبنو كلاب وما تلقى عقيل من نمير، أجمعوا على قتل بنى نمير. فارتحلت نمير ليلحقوا ببنى سعد بن زيد مناة، فلحقتهم كلاب فردتهم، فتحملوا ما كان لهم من دم فى بنى كعب، ووهبوا لهم ما كان منهم. فقال أبو دؤاد الرؤاسى فى ذلك[2]:

دفعنا، والأحبة من دفعنا ... وكنا ملجأ لبنى نمير

حوينا حجرنا لهم فحلوا ... إلينا بعد تظعان وسير

وكان الرأس يوم قراص منا ... ومنا الرأس يوم أبى عمير

فان وهت العصا وأمنتموهم ... فلا تستبدلوا أخيال طير

صديق كلما كنتم بشر ... وأعداء إذا كنتم بخير"

وكانت أغلب الأخبار على هذا النمط من القصر، فلا تطول وتتعدد الأشعار

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٩٦.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٥٩٠.

فى غير ما رواه عن الأخطل، وابن مفرغ الحميرى، ويزيد بن عبد الملك. فقد روى[1]: "أن حبابة جارية يزيد بن عبد الملك غنت يوما:

بين التراقى واللهاة حرارة ما تطمئن وما تسوغ فتبرد

فأهوى ليطير فقالت: يا أمير المؤمنين، إن لنا فيك حاجة. فمرضت وثقلت فقال: كيف أنت يا حبابة؟ فلم تجبه. فبكى وقال:

لئن لم تسل عنك النفس أو يذهل الهوى فباليأس يسلو القلب لا بالتجلد

وسمع جارية لها تتمثل:

كفى حزنا بالهائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فكان يتمثل بهذا... ".

كل هذا القول ينطبق على الشعراء الأمويين غير واحد، ولذلك صرحت أنى أتجوز حين أعلن أن هؤلاء الشعراء استأثروا بأغلب أشعاره. فالحق أن الذى استأثر بها هو ذلك الشاعر الواحد وهو الشاعر الذى حفظ شعره أخبار الناس، أعنى الفرزدق.

فالأخبار الباقية تدل على أنه أولاه من العناية مالم يول لغيره من الشعراء، فروى عنه من الأخبار قدر ما روى عن بقية الشعراء الأمويين. وكشف عن جوانب متعددة من حياة الرجل، تتصل بالأغراض المختلفة من شعره، من غزل وفخر وهجاء ونقائض. قال ابن سلام[2]: "كان للفرزدق غلامان أحدهما اسمه وقاع، والآخر نقطة. ولوقاع يقول الفرزدق:

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ١٤٦٥ (أحداث سنة ١٠٥).

(٢) طبقات فحول الشعراء ٣٧. المرزبانى : الموشح ١١٤.

تغلغل وقاع إليها فأصبحت تخوض خداريا من الليل أخضرا
لطيف، إذا ما انغل أدرك ما ابتغى إذا هو للضبي الغرير تقترا

وقال أيضا:

فأبغلهن وحى القول عني وأدخل رأسه تحت القرام
أسيد ذو خريطة نهارا من المتلقطي قرد القمام
فقلن له: نواعدك الثريا وذاك إليه مجتمع الزحام
ثلاث واثنتان فهن خمس وسادسة تميل إلى الشمام
فبت بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام"

والتفت بطبيعة الحال إلى ما كان بينه وبين جرير من تناقض، فروى خبرا يكشف عن خلق كل منهما، قال[1]: "كان الفرزدق يتضور ويجزع إذا أنشد لجرير، وكان جرير أصبرهما". وروى خبرا آخر يبين حال الناس بينهما، قال[2]: "ما شهدت مشهدا قط ذكر فيه جرير والفرزدق فأجمع أهل ذلك المجلس على أحدهما".

وروى بعض الطرائف التى وقعت بين الفرزدق وبعض الشعراء مثل الحوار الذى دار بينه وبين الأحوص الأنصارى[3]، وما كان بينه وبين نصيب فى مجلس سليمان بن عبد الملك وحكيته فى الفصل السابق، كما ذكرت آنفا أخبار الشعراء الذين تعرض لهم يونس لأنهم تعرضوا للفرزدق مثل اللعين المنقرى وجرير بن خرقاء العجلى.

---

(١) ابن سلام ٣١٧.

(٢) ابن سلام ٢٥١. الأغانى ٨ : ٥.

(٣) ابن سلام ٣١٣.

ويهجس بخاطرى ظن أن يونس تحدث عن أبى النجم، إذ كان خبره له اتصال ما بأخبار الفرزدق. قال[1]: "اجتمع الشعراء عند سليمان بن عبد الله فأمرهم أن يقول كل رجل منهم قصيدة يذكر فيها مآثر قومه ولا يكذب. ثم جعل لمن برز منهم جارية مولدة. فأنشدوا، وأنشد أبو النجم حتى أتى على قوله:

عُدُّوا كم ربَع الجيوش لصلبه عشرون، وهو يعدُّ فى الأحياء

قال: أشهد - إن كنت صادقا - أنك لصاحب الجارية. قال أبو النجم: سل الملأ عن ذلك يا أمير المؤمنين. قال الفرزدق: أما أنا فأعرف منهم ستة عشر، ومن ولد ولده أربعة، كلهم قد ربع. فقال سليمان: ولد ولده هم ولده، ادفع إليه الجارية".

وطبيعى بعد أن قال عن الفرزدق ما قال، وحكى عنه ما حكى، أن يعنى بما أشار إليه فى شعره من أخبار. ولما كنا نعلم أن النقائض خاصة مليئة بالإشارات التاريخية التى تشيد بمفاخر قبيلة الشاعر ومآثرها، وتعيب قبيلة خصمها بما كان فيها من مثالب أو ما قاسته فى حروبها من هزائم؛ كان غير غريب علينا أن نعتقد أن المجال الذى عنى يونس بأخباره فسيح، لا يغفل جاهلية ولا إسلاما. ولكن الحق أننا لا نملك دليلا على شىء من هذا. فكل ما وجدته منسوبا إليه أخبار تتعلق بما أراد أن يضطلع به عبيد الله بن زياد فى البصرة بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية، وعدم قيام خليفة يبايعه الناس، واضطراب الأمر فى الأقطار الاسلامية. وكان ذلك منه بمناسبة حديثه عن قول الفرزدق خاصا بهذه الأحداث:

---

(١) ابن سلام ٥٧٨.

ومـــن الـــذى أعطـــى يديـــه رهينـــة لغارى معد يوم ضرب الجماجم
كفى كـل أم مـا تخـاف علـى ابنهـا وهـــن قيـــام رافعـــات المعـــاصم
عشيـــة ســـال المربـــدان كلاهمـــا عجاجة موت بالسيوف الصـــوارم

قال أبو عبيدة[1] "مبدأ حديثه أن يونس بن حبيب النحوى حدثنى قال: لما قتل عبيد ا لله بن زياد الحسين بن على رضى ا لله عنهما وبنى أبيه بعث برؤوسهم إلى يزيد. فسر بقتلهم أولا وحسنت بذلك منزلة عبيد ا لله عنده. قال فلم يلبث إلا قليلا حتى ندم على قتل الحسين رضى ا لله عنه فكان يقول: وما كان على لو احتملت للحسين الأذى، فأنزلته معى فى دارى، وحكمته فيما يريد، وإن كان فى ذلك وكف ووهن فى سلطانى، حفظا لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ورعاية لحقه وقرابته. لعن ا لله ابن مرجانة، فإنه أخرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع من حيث أقبل أو يأتينى ويضع يده فى يدى أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه ا لله تعالى، فأبى ذلك ورده عليه وقتله، فبغضنى بقتله إلى المسلمين وزرع فى قلوبهم العداوة، فأبغضنى له البر والفاجر بما استعظم الناس من قتلى حسينا. مالى ولابن مرجانة، لعنه ا لله وغضب عليه! ثم إن عبيد ا لله بعث مولى له يقال له أيوب بن حمران إلى الشام ليأتيه بخبر يزيد. قال: فركب عبيد ا لله ذات يوم حتى إذا كان فى رحبة القصابين إذا هو بأيوب بن حمران قد قدم، فلحقه فأسرّ إليه موت يزيد بن معاوية. فرجع عبيد ا لله من مسيره ذلك. فأتى منزله وأمر عبد ا لله بن حصن – أحد بنى ثعلبة بن يربوع – فنادى: الصلاة جامعة ..".

نخلص من هذا بأن يونس بن حبيب عنى بقسمين متميزين من الأخبار. يتألف

---

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق ٧٢١. وانظر ٧٢٤، ٧٢٩، ٧٣٤.

القسم الأول من القصص الشعبية التى رددتها الألسنة فى الجاهلية والاسلام على اختلاف ألوانها، من قصص العلاقات بين الأفراد، والعلاقات بين القبائل، وقصص العشاق العذريين، وقصص الحيوان المتخيلة. وكان الذى دعاه إلى العناية بهذه الألوان من القصص الشعبية أو أغلبها، كتاب الأمثال الذى ألفه، لأن الأمثال تقوم على هذا القسم من القصص، ولم يختلف نهج يونس عن نهج نظرائه الذين عنوا بهذا القسم وجمعوا أخباره ودونوهم دون نقد ولا تمحيص.

ويتألف القسم الثانى من أخبار الشعراء. وقد أهمل يونس الجاهليين والعباسيين منهم فلم أجد فيما بين يدى من أخبار شيئا عنهم. واقتصر على المخضرمين والاسلاميين أو الأمويين، فتحدث عن جماعة منهم، غير أن القسط الأكبر من حديثه كان عن الفرزدق ومن اتصل بهم وما أشار إليه فى شعره من أحداث.

فلا عجب أن ينعته الناعتون بأنه كان فرزدقيا[1] . ويدل هذا على صدق قول ابن سلام حين وصف يونس فقال: "إخبارى نسابة وخاصة أخبار شعراء بنى أمية". فكل ما بين أيدينا يؤكد الشطر الثانى من هذا القول.

أما وصفه "بالنسابة" فلم أجد فى الأخبار التى عثرت عليها ما يدعمه غير حديثه عن ابن مفرغ الحميرى، فقد أورد نسبه أو قطعة منه. ولم أجد ما يشبه ذلك فيما بقى من حديثه عن سائر الشعراء. وكان لنا الحق فى الشك فى هذا الوصف، لولا أن يونس -بما يبدو- كان مشهورا بمعرفة الأنساب وما تحتوى عليه من مفاخر

---

(١) أبو الفرج: الأغانى ٨ : ٥.

ومثالب، حتى ضرب به المثل. قال الجاحظ[٢]: "وصف الهذيل المازنى مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام، فقال: وا لله لهو أنسب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دعامة للناس، بل هو أنسب من أبى بكر الصديق رضى ا لله عنه. لقد دخلت على رجل أعرف بالأمهات المنجبات من سحيم بن حفص، وأعرف بما دخلها من الهجنة والإقراف من يونس بن حبيب". إذن فلا شك أنه كان نسابة حقا، وإن لم يتبين ذلك فيما بقى من مروياته.

وكشف لنا النظر فى هذه المرويات أنه أخذ قسطا منها من أستاذه أبى عمرو، والقسط الآخر من العارفين بالأخبار، المعاصرين لها، وتحرى منهم الذين اشتهروا بسعة المعرفة والثقة. وعنى فى هذه الأخبار بما اتصل بحياة الشعراء، وبما أشاروا إليه فى شعرهم. وحاول الاحاطة الشاملة فى رواية الأخبار التى تضمنها الشعر، فعنى بالدقائق والتفاصيل، وصورها على اتساع مجالها دون أن يقتصر على الجزء الذى يوضح الشعر منها.

النقد

برز لنا يونس بن حبيب واحدا من علماء العربية، الذين عاشوا فى القرن الثانى، وشارك فيما أخذوا فيه. فكان له حظ من رواية الشعر، وأكثر من حظ فى العناية بأخبار أصحابه والأخبار الواردة فيه، وخاصة من العصر الأموى.

وقد احتفل علماء العربية فى هذا العهد بنقد الشعر احتفالا كبيرا، بل يمكن القول بأن هذا الاحتفال تجاوز علماء العربية إلى غيرهم من عامة الناس، بسبب ما

---

(٢) الحيوان ٣ : ٢١٠.

اشتبك فيه جرير والفرزدق والأخطل وجماعة كبيرة من الشعراء من تناقض، وترقب الناس لما يخرجه كل منهم ردا على خصمه، ثم التنازع فى غلبة كل منهم على الآخر فى النقيضتين آنا، وفى النقائض كلها آنا أخرى؛ وفى فن الهجاء آونة، وفى الشعر بجميع فنونه أخرى. حتى قال من أرخ للنقد العربى[1]: "غير أن الحال تغيرت كثيراً فى أواخر القرن الأول، تغيرت فى أخريات أيام فحول الاسلاميين. فارتقى النقد الأدبى ارتقاء محمودا، وكثر الخوض فيه، وتعمق الناس فى فهم الأدب، ووازنوا بين شعر وشعر، وبين شاعر وآخر، حتى لنستطيع أن نقول: إن عهد النقد الصحيح يبتدئ من ذلك الوقت، وأن كل ما سبق لم يكن غير نواة له أو محاولات فيه".

ولم يكن من الطبيعى أن يعيش يونس فى هذه المعركة الشعرية وأعقابها، وفى هذه المعركة النقدية، ولا يصاب بحماها، وخاصة أن بعض شيوخه كان لهم نصيبهم فيها.

وإذا كان الأمر كذلك، أحب أن أستهل بما اقتصر فيه يونس على الرواية، وحكاية مواقف شيوخه، ومن التقى بهم من الناس. وحين نفعل ذلك نجد يونس يروى عن أربع فئات من الناس: الشعراء، وكبار القوم، والشيوخ، وجماهير الناس.

فكان أكثر من روى عنهم الشعراء من أمثال الفرزدق، ورؤبة، وذى الرمة. وقد أوردت سابقا الخبر الذى أعجب فيه الفرزدق بشعر لنصيب حتى وصفه بأنه أشعر بنى جلدته. وأما رؤبة فقد اتهم جريرا بالكذب أو الخطأ فى واحد من معانيه، كما سبق أن رأينا.

---

(١) طه احمد ابراهيم: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٣٣.

وروى نقدين عن اثنين من خلفاء بنى أمية، وهما سليمان بن عبد الملك، الذى شارك الفرزدق فى الاعجاب بأبيات نصيب؛ وعبد الملك بن مروان الذى فضل أبياتا للأعشى على أبيات لكثير. قال ابن سلام[1]: "قال يونس: أنشد كثير عبد الملك مدحته التى يقول فيها:

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة ... أجاد المسدى سردها وأذالها
يؤود ضعيف القوم حمل قتيرها ... ويستضلع القوم الأشم احتمالها

فقال له عبد الملك: قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحب إلى من قولك إذ تقول". أراد بقول الأعشى:

وإذا تجىء كتيبة ملمومة ... شهباء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدم، غير لابس جنة ... بالسيف تضرب معلما أبطالها

وآثر برواية النقد شيخا واحدا هو ابن أبى اسحاق، فحكى مواقفه من الفرزدق، والمعركة التى احتدمت بينهما بسبب ما ارتكب الشاعر فى لغته. وروى عنه رأيا كان منكرا له. قال ابن سلام[2]: "أخبرنى يونس كالمتعجب أن ابن أبى إسحاق كان يقول: أشعر أهل الجاهلية مرقش، وأشعر أهل الاسلام كثير. ولم يقبل هذا القول ولم يشع".

أما الجماهير التى أورد آراءها فقد قال ابن سلام بصددها[3]: "أخبرنى يونس

---

(١) الموشح ١٤٥. وانظر تكملة الخبر ورد كثير عند ابن سلام ٤٥٨.

(٢) طبقات فحول الشعراء ٤٤، ٤٥٧.

(٣) نفس المرجع ٤٤.

ابن حبيب: أن علماء البصرة كانوا يقدموا امرأ القيس بن حجر، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى، وأن أهل الحجاز يقدمون زهيرا". وأضاف السيوطى[1]: "وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحدا، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحدا".

وكل هذه الأقوال غير ذات أهمية كبيرة للبحث عن يونس، لأنها لا تكشف عن موقف للرجل، ولا تبين رأيا خاصا له، غير استنكاره لما قال أستاذه ابن أبى إسحاق. وإن يونس لتروى عنه أقوال نقدية كثيرة تغنينا عن الالتفات إلى مروياته.

ونستطيع أن نجعل هذه الأقوال أصنافا. نبدأ منها بأحكامه العامة على فن الشعر. فقد روى سليمان بن إسحاق الزبالى عنه أنه قال[2]: "الشعر كالسراء والشجاعة والجمال لا ينتهى منه إلى غاية". ويدل هذا القول على أن الرجل كان يرى أن هناك أمورا معنوية، وتقديرية، يختلف النظر فيها، ولا يستطيع أن يحكم أنها انتهت إلى غاية لها لا تتجاوزها بل لايستطيع أحد أن يقارن بين المغترفين منها: أيهم أعظم حظا منها، وخاصة عندما يتقارب نصيبهم. ومن هنا كان عسيرا أن نصل إلى رأى مجمع عليه أن فلانا أشعر الشعراء. ولا أتفق مع الصديق الدكتور محمد زغلول سلام[3] أن هذا القول بصدد صلة الشعر بالأحاسيس الانسانية.

وننتقل من فن الشعر عامة إلى أغراضه، فقد كان ليونس نظرات فى بعضها. فقد حاول أن يعرف المدح والتأبين ويفرق بينهما، فقال[4]: "التأبين مدح الميت والثناء عليه. قال رؤبة: (فامدح بلالا غير ما مؤبن) والمدح للميت". ولست أدرى

---

(١) المزهر ٢ : ٤٨٢.

(٢) ابن سلام ٥٥.

(٣) تاريخ النقد العربى ٣١.

(٤) ابن سلام ١٧٤.

أيفرق يونس بين التأبين والرثاء أم لا . ولكن ما قاله هنا عده النقاد التعريف الصحيح، ولم يفرقوا بينه وبين الرثاء. فشاع[1] بينهم أن الرثاء ثناء على الميت، وأن لا فرق بينه وبين المديح غير موت المقصود بالأول وحياة المقصود بالثاني. وفقدنا عندهم الشعور بالأسى واللوعة من أجل الفقيد، إلى أن تنبه إليه ابن رشيق فأبرزه وإن كان قد قصره على طبقة خاصة من الناس، قال[2]: "سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا". ولحسن الحظ أن الشعراء لم يأبهوا لهذا الكلام وساروا في طريقهم مظهرين ما شاءوا من عواطف، فمنحونا مجموعة من روائع الرثاء.

ونظر في الهجاء، ومسالك الشعراء فيه، واستجابة الناس لكل واحد منها، فقال[3]: "أشد الهجاء بالتفضيل، وهو الإقذاع عندهم". وقدأخذ يونس هذا القول مما جرى بين عمر بن الخطاب والحطيئة. قال ابن رشيق[4]: "لما أطلق عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الحطيئة من حبسه إياه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر، قال له: إياك والهجاء المقذع. قال: وما المقذع يا أمير المؤمنين؟ قال:المقذع أن تقول: هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبنى شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم. قال: أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر..".

ولم يتفق كثير من النقاد مع يونس في كون هذا النوع من الهجاء أشدها. فالأقوال متعددة في هذا الصدد تكشف عن اختلاف كبير، لعله يكشف عن

---

(١) الدكتور أحمد أحمد بدوى: أسس النقد الأدبى عند العرب ٢٢٤.

(٢) العمدة ٢ : ١٧٤.

(٣) العمدة ٢ : ١٧٠.

(٤) العمدة ٢ : ١٧٠.

مزاج القائل، ومزاج العصر الذى كان يعيش. فعلى حين يقول أبو عمرو بن العلاء[1]: "خير الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها" يؤيده خلف الأحمر ويقول[2]: "أشد الهجاء أعفه وأصدقه" يقول القاضى الجرجانى[3]: "فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه، وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس. فأما القذف والإفحاش فسباب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم"، ويرى قدامة بن جعفر[4] أن الهجاء الجيد يكون بسلب الفضائل النفسية.

ونظر فى تحسر الشعراء على الشباب المولّى، واستذكر ما يعرف من شعر، فوجد أنه لايفى بحق هذا العزيز الذاهب. قال [5]: "ما بكت العرب على شيء بكاءها على الشباب، وما بلغت به كنه ما يستحق". وقد أخذ الصولى[6] عنه هذا الحكم، وأفاد منه فى تفضيل مقطوعة لمنصور النمرى.

والتفت إلى العيوب العروضية التى تلحق الشعر، فقال [7]: "عيوب الشعر أربعة: الزحاف والسناد والايطاء والاكفاء – وهو الإقواء".

وقد اتفق يونس فى تعريفه هذا للاكفاء مع[8] "جلة العلماء كأبى عمرو بن

---

(١) العمدة ٢ : ١٧٠.

(٢) العمدة ٢ : ١٧٠.

(٣) الوساطة ٢٤.

(٤) نقد الشعر ٣٠ .

(٥) المبرد: الفاضل ٧٢ . الزبيدى ٤٩.

(٦) أخبار أبى تمام ٢٧.

(٧) ابن سلام ٥٦.

(٨) العمدة ١ : ١٦٦.

العلاء، والخليل بن أحمد، وأحمد بن يحيى ثعلب"، غير أن المفضل الضبى والمبرد خالفاه وجعلا الاكفاء اختلاف الحروف فى الروى.

ونبه إلى جماعة من كبار الشعراء وقعوا فيه ولم يفطنوا إلى تبرئة شعرهم منه. قال[1] : وقد ركب بعض الفحول الإقواء فى مواضع مثل سحيم بن وثيل الرياحى فى قوله:

عرين من عرينة ليس منا برئت إلى عرينة من عرين
عرفنا جعفرا وبنى عبيد وأنكرنا زعانف آخرين"

وهون يونس من شأن الزحاف، دون بقية العيوب العروضية، فقال[2]: أهون عيوب الشعر الزحاف وهو أن ينقص الجزء عن سائر الأجزاء". فاتفق فى هذا مع الخليل، الذى ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه يونس، فاستحسن القليل منه فى الشعر[3].

وعثرت على قولين يدلان على أن يونس تحدث فى أشياء تندرج تحت ما عرفه النقاد بالسرقات الشعرية. فاستبعد فى قول الزبرقان الذى ذكرته آنفا السرقة، ورأى أنها تضمين لبيت على هيئة المثل السائر.

ويبدو أن يونس اعتمد فى إنكار أن يكون هذا الأمر من السرقة على أستاذه أبى عمرو بن العلاء[4] الذى لم ير ذلك عيبا.

---

(١) قدامة : نقد الشعر ١٠٩.

(٢) الموشح ٨٣. قدامة : نقد الشعر ١٠٧.

(٣) ابن سلام ٥٨.

(٤) العمدة ٢ : ٢٨٣.

ونبه فى القول الثانى إلى أحد المعانى التى استوحاها جرير من القرآن. فقد علق على بيته:

مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تشد عليكم ورجالا

فقال[1]: "أخذ هذا المعنى من قول الله: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو﴾".

وعند يونس كثير من الأحكام العامة. أطلق بعضها على قبائل، مثل قوله [2]: "ليس فى بنى أسد إلا خطيب أو شاعر أو قائف أو زاجر أو كاهن أو فارس. وقال: وليس فى هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العَدْو". وأطلق بعضها الآخر على شعراء، أعجب بشعرهم أو استهجنه جملة. فقد كان يعجب بشعر النابغة الجعدى، ورجز رؤبة، ويثنى عليهما. روى الجاحظ عنه أنه قال[3]: "انما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدى ورؤبة". واستنبط من ذلك أنه كان يميل إلى الشعر غير المصنوع المجرد، ويفضله على الشعر الذى يتروى فيه صاحبه ويتأنق. وروى ابن سلام أنه كان معجبا أيضا بشعر ابنى قيس الرقيات وعبدالله بن الزبعرى من القرشيين، قال[4]: "كان عبيد الله أشد قريش أسر شعر فى الاسلام بعد ابن الزبعرى". وكان الأخطل من الشعراء الذين أعجب بعذوبة شعرهم، قال[5]: "ما أكثر ماء شعر الأخطل". وأعتقد أنى فى غنى عن الاشارة إلى إعجابه بشعر الفرزدق لما احتوى عليه من أخبار الناس.

---

(١) الجاحظ : الحيوان ٥ : ٢٤٠.

(٢) الجاحظ : البيان ١ : ١٧٤.

(٣) البيان ٣ : ١٣ ، ٣ : ١١ ، ٤ : ٨٤.

(٤) طبقات فحول الشعراء ٥٣٠.

(٥) الصولى: أخبار أبى تمام ٣٣.

وكان البعيث المجاشعي في مرحلة متوسطة، إذ أساء في فن وأحسن في آخر، قال عنه[1]: "لعمري لئن كان مغلّبا في الشعر، لقد كان غَلَب في الخطب". وكان الأديب إذا غلبه خصومه قيل: مغلب، وإذا غلبهم هو قيل: غُلّب[2].

أما الشاعر الذي لم يرض عنه فهو عبيد الله بن الحر. قال إسحاق[3]: "قلت ليونس: عبيد الله بن الحر يقوى؟ فقال: الإقواء خير منه".

وهناك رجل آخر لم يكن شاعرا، ولكنه كان بليغا، لفت إليه أنظار يونس، فتعلقت به في إعجاب خالص، وجعلته يقول[4]: "ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن [عثمان] البتي".

وأشاد يونس بالنابغة الجعدي وروبة والعجاج مرة أخرى، غير أنه أزاح الستار في هذه المرة عن الغرض الشعري الذي يرى كلا منهم قد برز فيه أكثر من غيره. قال ابن سلام[5] : "يونس : كان الجعدي أوصف الناس لفرس. أنشدت قوله رؤبة:

فإن صدقوا قالوا: جواد مجرب ضليع ومن خير الجياد ضليعها

قال رؤبة: ما كنت أرى المرهف منها إلا أسرع. ولم يكن رؤبة والعجاج صاحبي خيل، ولكن كانا صاحبي إبل ونعتها".

وقال المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم[6]: "عرف يونس أن امرأ القيس

---

(١) الجاحظ: البيان ١ : ٣٧٤ ، العصا ٢٠١ . السيوطي : المزهر ٢ : ٤٨٨.

(٢) ابن قتيبة عن يونس : أدب الكاتب ١٧٣.

(٣) قدامة : نقد الشعر ١٠٩. الجاحظ : الحيوان ١ : ١٣٤.

(٤) الميداني: مجمع الأمثال ٢ :٢٠٦. وانظر سعيدا الأفغاني: في أصول النحو ٥٦ (الحواشي).

(٥) الطبقات ١٠٧. الجاحظ: رسائله ٢ :٢٢٠.

(٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٦٣.

وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر وعبد بنى الحسحاس وذا الرمة كانوا يحسنون وصف المطر".

وأعتقد أن الأمر اختلط عليه، فالذى أدلى بهذا الحكم هو ذو الرمة لا يونس، كما يدل قول ابن سلام[1] : "أخبرنى يونس بن حبيب قال: قيل لذى الرمة: من أحسن الناس وصفا للمطر؟ فذكروا قول عبيد:

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

.. وذكروا قول عبد بنى الحسحاس:

تعبت به ظنا وأيقنت أنه يحط الوعول والصخور الرواسيا

.. فقال بل قول امرئ القيس أجود حيث يقول:

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر"

ولما كان العصر الذى عاش فيه يونس عصر الموازنة بين الشعراء، وتفضيل أحدهم على الآخر، بل تفضيل أحدهم على جميع الشعراء أحيانا؛ كان من الطبيعى أن يشارك رجل مثله فيما يخوض فيه الناس أو يضطر إلى ذلك، وإن كان لا يؤمن بصحة هذا المسلك. فقد رأيناه يحكم بعسر الوصول إلى أمثال هذه الأحكام المطلقة فى الأمور التقديرية. وقد أحسن يونس كل الاحسان عندما تهرب من سؤال بتفضيل واحد من الشعراء، ولجأ إلى الفن الذى أحسن فيه كل شاعر. قال ياقوت[2]: "حدث محمد بن سلام قال: سألت يونس النحوى عن أشعر الناس، فقال: لا أومى إلى رجل بعينه، ولكنى أقول: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا

---

(١) الطبقات ٧٦.

(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥.

رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب". عنى بذلك أن امرأ القيس تفوق على غيره فى وصف الخيل، والنابغة فى الاعتذار، وزهيرا فى المدح، والأعشى فى وصف الخمر. وقد وجد هذا القول قبولا عاما من الأدباء والنقاد منذ صدوره إلى يومنا هذا، وكثر تردده على كل لسان تعرض لهؤلاء الشعراء. ولكننا لسنا على يقين من صدوره عن يونس. فقد روى[1] أن قائله كثير أو نصيب، فإن كان ذلك حقا كان يونس راويا له لا مبتكرا. ورواه الأصمعى أيضا عن ابن أبى طرفة.

وبالرغم من كل هذا الحرص الذى أبداه يونس، والتوقى فى خوض غمار معركة التفضيل بين الشعراء، وقع فيها واصطلى بلهيبها، وخرج برأى غريب، لم يرافقه أحد فيه، وأعتقد أن الذى فرضه عليه أهدافه اللغوية. قال ابن رشيق[2]: "زعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد. وقال: إنما هو كلام فأجودهم كلاما أشعرهم، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول: لو كان فى مكانه غيره لكان أجود. وذكر أنه صنع أرجوزته:

* قد جبر الدين الاله فجبر *

فيها نحو مئتى بيت وهى موقوفة مقيدة. قال: ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها".

ويبدو أن تلميذه أبا عبيدة حاول أن يزيد هذا الكلام إيضاحا، ويدعمه بأدلته، فقال[3]: "انما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك، إذا

---

(١) العمدة ١ : ٦٥.

(٢) العمدة ١: ٨٩. أبو الفرج (طبعة الساسى) ١٨ : ١٢٤. المزهر ٢ : ٤٨٤.

(٣) العمدة ١ : ٩٠.

حارب أو شاتم أو فاخر، حتى كان العجاج أول من أطاله وقصَّده، ونسب فيه، وذكر الديار، واستوقف الركاب عليها، ووصف مافيها، وبكى على الشباب، ووصف الرحلة، كما فعلت الشعراء بالقصيد؛ فكان في الرجاز كامرئ القيس في الشعراء".

وإذا كان يونس فقد الرفيق في تفضيله المطلق للعجاج على سائر الشعراء والرجاز، فقد كان أكثر توفيقا في أحكامه التي وازن فيها بين شاعرين أو ثلاثة، ولقي من يؤيده ويؤنسه في طريقه. روى الكسائي[1]: "حضرت مجلسا والخليل فيه ويونس بن حبيب النحوي، فتذاكروا الشعر. فتكلم يونس في تقديم زهير وتقريظه حتى أغرب في وصفه. وذكر الخليل النابغة الذبياني".

وكلا الرجلين اعتمد على سابقين له في تفضيل الشاعر الذي فضل[2]، وتابعه في رأيه لاحقون.

ولما كان يونس يفضل العجاج على الجميع فقد مد رأيه هذا على ابنه رؤبة أيضا. قال أبو عبيدة[3] : "قال رؤبة ليونس: أنا أشعر من أبي. قال: بل أبوك أشعر منك. قال : أبي يقول:

يادار سلمى، اسلمي ثم اسلمي بسمسم أو عن يمين سمسم"

وكانت الظروف جميعا تجبره أن يخوض مع الخائضين في المعركة بين شعراء بني أمية الثلاثة. فجعلهم مراتب ثلاثا. كانت المرتبة الأولى للأخطل، والثانية

---

(١) مجالس العلماء ٢٥٩.

(٢) ابن سلام ٤٧، ٥٢. ابن رشيق ١ : ٩٨.

(٣) الموشح ٢١٨.

للفرزدق، والثالثة لجرير. قال أبو عبيدة[1] : " جاء رجل إلى يونس فقال له: من أشعر الثلاثة؟ قال: الأخطل. قلنا: من الثلاثة ؟ قال : أى ثلاثة ذكروا فهو أشعرهم. قلنا : عمن تروى هذا؟ قال: عن عيسى بن عمر وابن أبى إسحاق الحضرمى وأبى عمرو بن العلاء وعنبسة الفيل وميمون الأقرن ، الذين ماشوا الكلام وطرقوه .. لا كأصحابك هؤلاء لا بدويون ولا نحويون. فقلت للرجل: سله: وبأى شئ فضلوه؟ قال: بأنه كان أكثرهم عدد طوال جياد، ليس فيها سقط ولا فحش، وأشدهم تهذيبا للشعر. فقال أبو وهب الدقاق. أما إن حمادا وجنادا كانا لايفضلانه! فقال: وما حماد وجناد؟ لا نحويان ولا بدويان، ولا يبصران الكسور ولا يفصحان، وأنا أحدثك عن أبناء تسعين أو أكثر، أدوا إلى أمثالهم، ما شوا الكلام وطرقوه حتى وضعوا أبنيته، فلم تشذ عنهم زنة كلمة، وألحقوا السليم بالسليم والمضاعف بالمضاعف والمعتل بالمعتل والأجوف بالأجوف وبنات الياء بالياء وبنات الواو بالواو، فلم تخف عليهم كلمة عربية. وما علم حماد وجناد!".

وعقب ياقوت على هذا القول بأن يونس انفرد به. وذلك غير صحيح. فابن سلام يقول[2] : "فاختلف الناس فيهم أشد الاختلاف وأكثره. وعامة الاختلاف أو كله فى الثلاثة . ومن خالف فى الراعى قليل، كأنه آخرهم عند العامة" يريد عامة العلماء. وأبو عبيدة يقول أيضا[3] : "كان يونس بن حبيب وعيسى بن عمر وأبو عمرو يفضلون الأخطل على الثلاثة". ولا نعجب لهذا كثيرا إذا وضعنا أمامنا عبارة أبى عبيدة التى تبرز نظرتهم إلى الأخطل،

---

(١) الأغانى ٨ : ٢٨٣. اليزيدى: الأمالى ٨٠. الزمخشرى: ربيع الأبرار ٤ : ١٠٤ معجم الأدباء ٢٠: ٦٥.

(٢) الطبقات ٢٥١.

(٣) الأغانى ٨ : ٣٠٥.

قال[1] : "الأخطل أشبه بالجاهلية، وأشدهم أسر شعر، وأقلهم سقطا" . فقد كانوا بشعراء الجاهلية أعلق وألزم.

ولم أعثر على قول ليونس فضل فيه الفرزدق على جرير. ولكن أبا الفرج حكى ذلك فى قوله [2] : "كان يونس فرزدقيا"، وأبان ابن سلام أبعاد هذا الاعجاب فى قوله[3] : "كان يونس يقدم الفرزدق بغير إفراط".

وأورد الدكتور محمد زغلول سلام خبرا بشأن الموازنة بين الشعراء الثلاثة يدل على أن يونس كان يقدم الفرزدق عليهم جميعا. قال[4] : "كان يونس بن حبيب يفضل الفرزدق. ويعلل ذلك بأنه أكثرهم عدد قصائد طوال جياد، ولم نجد للأخطل عشرا بهذه الصفة، ووجدنا لجرير ثلاثا بهذه الصفة". ولكنه لم يذكر مصدر الخبر، ولم أجده فى موضع آخر. وأخشى أن يكون الأمر اختلط فيه بين الفرزدق والأخطل، إذ أن ما حكاه عن الفرزدق ينطبق على ما أوردته آنفا عن الأخطل. وأخشى أيضا أن يكون هذا الخبر قد خلط إلى جانب ذلك كلام يونس بتعليق أبى عبيدة عليه حين قال[5] : "فنظرنا فى ذلك، فوجدنا للأخطل عشرا بهذه الصفة، وإلى جانبها عشرا إن لم تكن مثلها فليست دونها، ووجدنا لجرير بهذه الصفة ثلاثا؟.

وما عثرنا عليه من نقد تطبيقى عند يونس قليل كل القلة. فقد عاب صورة

---

(١) الأغانى ٨ : ٣٩٢.

(٢) الأغانى ٨ : ٥ .

(٣) الطبقات ٢٥١.

(٤) تاريخ النقد العربى ٨٩. وانظر ما يضعف هذا الخبر عند ابن سلام ٣١٥، والمرزبانى فى الموشح ١١٦.

(٥) الأغانى ٨ : ٢٩٢.

رسمها امرؤ القيس بأنها غير حقيقية. قال ابن سلام[1] : " أنشدت يونس النحوى هذا البيت الذى لامرئ القيس:

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

فزوى وجهه وجمع حاجبيه وقال: أخطأ مع إحسانه، إن الثريا لا تعترض، انما الاعتراض للجوزاء، هلا قال كما قال ذو الرمة:

وردت اعتسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق".

وعاب فى قول ثان لفظا استخدمه الأعشى، وفضل عليه أبياتا لمروان بن أبى حفصة من نفس روى شعر الأعشى ووزنه. قال المرزبانى[2] : "حدثنا الأصمعى قال : كنا فى حلقة يونس فجاء مروان بن أبى حفصة فقال: أيكم يونس؟ فأومأنا إليه فجلس. فقال: أصلحك الله، إنى أرى أقواما يقولون الشعر لأن يكشف أحدهم عن سوءته فيمشى فى الطريق أحسن به من أن يظهر مثل ذلك الشعر، وقد قلت شعرا أعرضه عليك، فإن كان جيدا أظهرته، وإن كان رديئا سترته. وأنشده:

طرقتك زائرة فحى خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالها

فقال له: ياهذا، اذهب فأظهر هذا الشعر، فأنت والله فيه أشعر من الأعشى. يريد فى قوله:

رحلت سمية غدوة أجمالها ...

فقال له مروان: قد سؤتنى وسررتنى، فأما الذى سررتنى به فلارتضائك الشعر، وأما الذى سؤتنى به فلتقديمك إياى على الأعشى. قال: نعم، إن الأعشى قال:

---

(١) الطبقات ٧٣. ابن منظور: نثار الأزهار ١٠٩.

(٢) الوشح ٥٥ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٦.

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها

والطحال لا يجعل فى شيء إلا أفسده، وأنت لم تقل ذلك". وأحب أن أشفع هذا الخبر بشك فيه، إذ سبق أن ذكرت أن يونس أبى أن يستمع إلى القصيدة، وأمهل الشاعر إلى أن يأتى خلف الأحمر ليكون هو الحكم. وهناك مصادر ترى أن خلفا هو صاحب هذا القول.

ونخرج من دراسة النقد عند يونس بصورة عن الرجل، تبرز بعض الجوانب فيه، وتغفل بعضها الآخر. فتبرز لنا الصورة هوى الرجل، وأين يتجه مزاجه.

فهو يحب من الشعر: ما كان من حيث المضمون كثير الأخبار كشعر الفرزدق، أو مانحا للعظة وحاثا على الخلق الكريم مثل شعر عدى بن زيد العبادى؛ ومن حيث الشكل وافر الرونق والعذوبة كشعر الأخطل، محكما متلاحما كشعر ابن قيس الرقيات وابن الزبعرى، والأخطل أيضا الذى كان يعنى بتهذيب شعره.

قال ابن سلام[1] : " سمعت يونس وقد تمثل بهذا البيت:

أيها الشامت المعير بالدهـ ـر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيا م ؟ بل أنت جاهل مغرور

فقال: لو تمنيت أن أقول شعرا ما تمنيت إلا هذه، أو مثل هذه" .

وأقف أمام ما ذكره الجاحظ أن يونس كان يحب من الشعر غير المصنوع ولا المحبر، فيأتى بعضه سامى الارتفاع وبعضه الآخر ساقطا، كما كان تلميذه الأصمعى[2] يحبه كذلك. فان أكثر ما بين يدى من أقوال يعارض هذا التصريح.

---

(١) الطبقات ١١٨.

(٢) ابن سلام ١٠٥ . ابن رشيق ١٠٧.

فتفضيل الرجل لزهير بن أبى سلمى، الذى كان أكبر رأس فى مدرسة عبيد الشعر، حتى قال عنه[1] أهل النظر: كان زهير أحصفهم شعرا، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق، وأشدهم مبالغة فى المدح، وأكثرهم أمثالا فى شعره"؛ وتقديمه للأخطل الذى نظّره أستاذه أبو عمرو[2] بالنابغة من الجاهليين، الذى احتج من فَضَّله بأنه[3] " كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتا، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف" ؛ وتأخيره لجرير الذى لم يكن يروِّى فى شعره[4] ؛ كل ذلك يدل على أن التوفيق خان الجاحظ فى قوله، وأنه ربما أراد الأصمعى فذكر يونس سهوا.

وتبرز لنا الصورة المنهج الذى كان يؤثره الرجل فى النقد، فقد كان يعتمد أكثر ما يعتمد على الموازنة. قال ابن دريد[5] : "قيل ليونس أو خلف: بم تعرف الشعر الجيد؟ فقال: بالشقلة. قال: الشقلة: أن تزن الدينار بازاء الدينار لتنظر أيهما أثقل، ولا أحسبه عربيا محضا".

وكان عند الموازنة يبحث عن آراء السابقين ممن درسوا كلام العرب، وألفوه، وعايشوه، فعرفوا مسالكه ودروبه، وهم البدو وعلماء العربية. ولم يكن يتقبل أقوالهم على علاتها، بل رفض بعضها كما فعل مع ابن أبى إسحاق.

وكان يقيم مقارنته بين الشعراء، وتفضيله أحدهم على نظيره، على عدة

---

(١) ابن سلام ٥٣.

(٢) ابن سلام ٥٥.

(٣) ابن سلام ٤٦. وانظر وصف يونس وأبى عبيد السابق لشعره.

(٤) ابن سلام ٣١٥.

(٥) الجمهرة ٣ : ٣٤٤. المزهر ١ : ٢٧٨.

أسس كشف عنها في حديثه عن العجاج والأخطل. الأساس الأول كثرة ما أصدر من قصائد. وتزداد هذه القصائد قيمة عند طولها، حتى أشاد بأن أرجوزة العجاج بلغت مئتي بيت. والأساس الثاني الجودة. ولم يسكت الرجل عند ذلك، بل أبان لنا بعض المظاهر التي نعتمد عليها في الحكم بالجودة. فكانت عنده تجنب الفحش، وقد أتاه ذلك من الجانب الخلقي الذي التزمه في حياته. وكانت تجنب السقط، وهو ما عبر عنه بطريقة أخرى حين قال: "ليس في شعره شيء يستطيع أحد أن يقول: لو كان في مكانه غيره لكان أجود".

ونحن عند التأمل في هذين الأساسين اللذين وضعهما للمفاضلة بين الشعراء نتبين أنهما أهم الأسس التي اتخذها محمد بن سلام بعد ذلك مقياسا لتقسيم الشعراء إلى طبقات . فكأن يونس أهدى إلى تلميذه أهم عمد كتابه الذي يعد أحسن ما أصدره العرب في النقد في عصره. حقا، اعتمد ابن سلام على كثيرين من العلماء السابقين على يونس، والمعاصرين له، واللاحقين؛ ووسع أسس يونس فكشف فيها عما لم يفطن الرجل ، ولكن ذلك كله لا ينقص من قدر يونس، وخاصة إذا أضفنا ما أدلى به من أحكام في انتحال الشعر اتخذها ابن سلام أيضا مع غيرها عمادا لما أقام به الدنيا وأقعدها في أقواله في هذا الصدد.

ويبدو أن يونس كان على حظ كبير من قوة الملاحظة، أعانه على التنبه إلى أشياء اعتمد عليها في نقده. فقد كان القدماء يحكون الخبر التالي في عجب، مستدلين به على توارد خواطر الشعراء على الصورة الواحدة. قال بلال بن جرير الشاعر [1] : "وقف الفرزدق على أبي بمربد البصرة، وهو ينشد قصيدته التي هجا

---

(١) الأغاني ٨: ٣٤ – ٥ . والعنفقة : شعرات بين الشفة السفلى والذقن.

بها الراعي .. فلما بلغ إلى قوله:

* بها برص بجانب اسكتيها *

وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنفقته، فقال أبى:

* كعنفقة الفرزدق حين شابا *

فانصرف الفرزدق وهو يقول: "اللهم أخره، وا لله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لايقول غير هذا، ولكن طمعت ألا يأبه فغطيت وجهى، فما أغنانى ذلك شيئا". أما يونس فيذهب إلى أبعد من ذلك ويقول: "ما أرى جريرا قال هذا المصراع إلا حين غطى الفرزدق عنفقته، فإنه نبهه عليه بتغطيته إياها".

كل ذلك يجعلنا لا نعجب حين نرى الناشئين من الشعراء يعرضون عليه شعرهم ليتعرفوا رأيه فيه، ويقوِّم منه ما يستحق التقويم، كما فعل مع مروان، وكما يبين الخبر التالى. روى محمد بن سلام عن وهب بن أبى إبراهيم التميمى البرجمى[1] : "جاشت نفسى بشىء من الشعر، فقلت ليونس: إن رجلا صاحب شعر، وقد جاشت نفسه بشىء منه، وهو يكره أن يخرجه حتى تسمعه. قال: هات. فأنشدته فقال: من هذا العاض بظر أمه".

ولا نعجب أن يلقى يونس الثناء من القدماء والمحدثين. قال ياقوت[2] فبالغ كما كان يبالغ القدماء: "كان يونس عالما بالشعر، نافذ البصر فى تمييز جيده من رديئه، عارفا بطبقات شعراء العرب.. يرجع إليه فى ذلك كله". وقال الدكتور محمد مندور[3] مقتصدا كا يفعل المحدثون: "وجد نقاد الشعر الخبيرون كالضبى

---

(١) الموشح ٣٦٧.

(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥.

(٣) النقد المنهجى عند العرب ١٧.

وخلف ويونس بن حبيب ثم الجمحى" . وقال طه أحمد إبراهيم[1] : " فأما أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب فلهما فى نقد الأدب آراء حسنة، ولهما فيه أثر جليل. يعدان فى النحويين، ويعدان كذلك فى اللغويين الذين وطدوا النقد الأدبى، ونظموا بحوثه، واستنبطوا مقاييسه".

النظم

قال الفيروز آبادى فى تعريف يونس بن حبيب[2] : "الأديب الشاعر".

أما الأديب فهو لقب استحق أن يتحلى به بما كان له من مشاركة فى رواية الشعر، وجهد فى حكاية الأخبار التى استخرجها منه، وجهود مشرقة فى النقد. بل ربما استحقه بجهوده فى اللغة والنحو، إذ أطلق بعض المؤرخين على رجال العلمين الأخيرين رجال الأدب، وعدوا يونس "من الطبقة الخامسة فى الأدب"[3] أرادوا بذلك الجيل الخامس من اللغويين والنحاة. وصنيع ياقوت فى معجم الأدباء أشهر من أن يذكر، حين أدخل فيه كل صاحب تأليف على اختلاف العلوم والفنون.

وأما الشاعر فلقد انفرد به الفيروز آبادى، وله مدلول واحد لم يضق فتنحسر عنه جماعة ولا اتسع فتندرج تحته كرة أخرى، مثل اللقب السابق. ولم يقع فى يدى بيت واحد صرح أحد الكتاب أنه من نظم يونس. بل إن العبارة التى أثبتها سابقا، وتحكى إعجاب يونس ببيت عدى بن زيد العبادى تبين فى جلاء أنه ليس بشاعر، قال: "لو تمنيت أن أقول شعرا .. " فهو لم يقل شعرا ولا تمنى أن يقوله. ولذلك أعتقد أن هذا القول سهو من الفيروز آبادى.

---

(١) تاريخ النقد الأدبى ٥٢.

(٢) تحفة الأبيه ١١٠.

(٣) ابن خلكان ٢ : ٤١٦. ابن العماد ١ : ٣٠١.

الفصل الثانى

الدراسات اللغوية

اللغة

أعلن من أرخوا ليونس بن حبيب أنه أصدر أربعة كتب. إذا نظرنا إلى عناوينها جعلنا الرجل من العلماء باللغة والقرآن والأدب. فإذا أدمنا النظر وعمقناه، واستنبطنا الظواهر، تبين أن الكتب الأربعة تعطينا صورة واحدة، هى صورة اللغوى. فالرجل كان لغويا فى جهوده جميعا. اتخذ من اللغة وسيلة وغاية. فعنى بكل ما يجعله قادرا على الاحاطة باللغة، من شعر وأخبار ونقد، عارفا بمسالك العرب فى حديثهم من نحو وصرف .

ولو وصلت الينا هذه الكتب لمنحتنا صورة وافية للرجل، ولكننا مضطرون الى استقصاء الأقوال المتناثرة منه فى الكتب المختلفة للتعرف عليه، كما فعلنا فى بقية الحقول التى عنى فيها. ولحسن الحظ أن ما بقى من هذه الأقوال غير قليل .

وأحب للتيسير أن أعتمد على تصنيف ما لهذه الأقوال. فأبدأ بما أدلى به من أقوال عن "اللفظ" . وحينئذ أجد أنه عالج فيما عالج صورة هذا اللفظ ومعناه. وكانت جل عنايته موجهة إلى هذه الصورة عندما تتعدد بالضبط مع بقاء مدلولها واحدا لا يتغير. روى ابن دريد عنه[1]: "تقول العرب: إن فى مض لمطعما، وفى مض، ومض: يريدون بذلك كسر الرجل شدقه عند سؤال الحاجة". وروى ابن

---

(١) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ . وميم مض بالكسر والفتح والضم.

السكيت عنه[1] : "أبى قائلها إلا تما وتما وتما – ثلاث لغات: يعنى تمام الكلام" و "أهل العالية يقولون: السم والشهد، وتميم تقول: السم والشهد"[2] .

وعالج صورة اللفظ عندما يتعدد ضبطها مع تعدد مدلولها أيضا. روى عنه ابن السكيت[3] : "غرفت غرفة واحدة، وفى الإناء غُرفة، وحسوت حَسوة واحدة، وفى الاناء حُسوة".

وعالج صورة اللفظ عندما تتعدد هيئتها ويتغير تكوين حروفها، مع بقاء معناها واحدا. روى عنه ابن السكيت[4] : "ذوى العود يذوى ذويا، وقد ذأى يذأى ذأوا. وقال الأصمعى: ولا يقال ذوى. قال أبو عبيدة: قال يونس: هى لغة" .وروى ابن دريد عنه[5] : "ذففه بالسيف وذافه وذفّه: إذا أجهز عليه، وذفف عليه. ودففه ودافه ودفه ودفف عليه: إذا أجهزه، أى قتله".

ويبدو أنه خاف أن يقع تصحيف فى بعض الألفاظ، فأعلن عن الحروف التى خاف فيها ذلك بالعبارة. روى عنه ابن دريد[6]: "حفصت الشىء – بالصاد غير المعجمة: إذا ألقيته من يدى. وحفضته – بالضاد معجمة : إذا عطفته" .

ووجه أكبر قسط من عنايته إلى الصيغ غير الشائعة من الألفاظ. فكان جل الأفعال التى أوردها فى كتبه، ونقلتها عنه المصادر الباقية من هذا النوع الذى قد نسميه تيسيرا "الغريب" مهما كان أصله أو استعماله. فنجد فى هذه الألفاظ:

---

(١) إصلاح المنطق ٩٨ . والتاء بالكسر والضم .

(٢) إصلاح المنطق ١٠٤ . أهل العالية يضمون الحرف الأول وتميم تفتحه .

(٣) إصلاح المنطق ١٢٩ . أدب الكاتب ٢٤٧ ، ٤٣٥ . المزهر ٢ : ٢٩٩ .

(٤) إصلاح المنطق ٢١٣ . أدب الكاتب ٣٦٦ .

(٥) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

(٦) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

الأفعال الثلاثية السالمة، مثل ما رواه ابن السكيت[1] : "وقد بعل الرجل يبعل: اذا صار بعلا، حكاها يونس، وأنشد: * يارب بعل ساء ما كان يعل * ، والثلاثية المضاعفة، مثل ما رواه ابن السراج[2] : "زعم يونس أنهم يقولون: كع يكُع. قال سيبويه: يكِع أجود. وهو كما قال"، والثلاثية المعتلة مثل قول الفراء[3] : "أنشدنا يونس النحوى :

رب حلم أضاعه عدم المـا ل ، وجهل غَطَى عليه النعيم

بتخفيف غطى"، والأفعال المضارعة من الثلاثى مثل التى حكاها عنه الصغانى فى الشوارد: "ينثِر ما فى الجراب: مثل ينثُر .. يخطِر ببالى: لغة فى يخطُر. عَلُن الأمر: لغة فى علَن وعلِن"، والأفعال المزيدة مثل ما جاء فى الشوارد: "وتَرت الصلاة ووترتها: مثل أوترتها .. حشَّمته: أغضبته، مثل حشَمته وأحشمته .. أحلأت السويق: مثل حلأته" .

ونجد منها المصادر مثل ما جاء فى الشوارد: "مصدر ألا – أى قصَّر – أَلْو – وأُلوّ .. الأُبو: الأبوة .. قدمت البصرة قِدْمانا: أى قدوما"، والجموع مثل آخاء التى رواها ابن جنى[4] ، وما جاء فى الشوارد[5] : "اللؤمان: اللئام .. يقال فى جمع سقب الناقة: سُقْبان، وفى جمع سقب البيت – وهو عموده: سِقْبان. يجمع الجدى جِدْيانا"، والأسماء مثل ما رواه ابن دريد[6] : "قال يونس: القرطبى، مثل فعللى: الصرع على القفا. وأخبرنا أبو حاتم عن أبى عبيدة عن يونس: شهد أعرابيان الجمعة، فلما ركع الناس وجعلوا يتأخرون قال

---

(١) إصلاح المنطق ٢١٥ . العين مفتوحة .

(٢) الجمل ٦١ ظ . الكاف مفتوحة واستجاد سيبويه كسرها .

(٣) السيرافى: أخبار النحويين البصريين ٢٨. وانظر ابن ولاد: المقصور والممدود ٨١ .

(٤) الخصائص ١ : ٣٣٨ . سر الصناعة ١ : ١٦٦ .

(٥) وانظر ابن السكيت: اصلاح المنطق ٤١٣ .

(٦) الجمهرة ٣ : ٤٦١ . القاف مكسورة والراء ساكنة والباء مشددة مفتوحة .

أحدهما لصاحبه: اثبت فإنها القرطبى" وما رواه الصغانى: "العِلّى: العلة" .

ونجد منها الصفات كالتى وردت فى الشوارد: "المصياف: الذى لا يتزوج حتى يشمط .. هذا الأمر صُغْران حُقْران، أى صغير حقير .. إناء ثَلْثان: إلى الثلث، كالنصفان: إلى النصف" .

وتتعدد الأسباب التى تجعل هذه الألفاظ غريبة، ولكنها جميعا تؤول الى عدم قياسيتها. فقد كان منها ما خضع لابدال أو إعلال غير قياسى، مثل قوله[1]: "مضيت على الأمر مضوا، وهذا الأمر مُمضوّ عليه" وقوله فى الشوارد: "الامتطال: الانتطال .. التحليل: الاحليل .. يَتِم ياتم: مثل ييتم"، وما لم يعل على حين كان واجبا إعلاله مثل قوله فى الشوارد: "أجويت القدر – وهذيل تقول: أجييتها – : أى غلفتها" ، وما خضع لقلب غير قياسى مثل قوله فى الشوارد: "أَمْق للعين: مَأقها .. امرأة مُفاضة: أى مفضاة. وأفاضها: أى أفضاها"، وما خضع لحذف غير قياسى مثل قوله فى الشوارد: "المضرح: المضرحى، كالقطام للقطامى". فلان مضلع لهذا الأمر: أى مضطلع، وكذلك مطلع" .

وكان منها المشتقات غير القياسية، إذا أخذت من علم مثل قوله فى الشوارد[2] : "اختاف: أتى خيف منى، كأخاف وأَخْيف، مثل امْتَنى: إذا أتى منى"، أو أخذت من اسم مثل قوله فى تهذيب الألفاظ[3] : "تقول العرب: امرأة معجزة: يعنون ضخمة العجيزة"، وقوله فى النوادر[4] : فاكه من الفاكهة، مثل لابن وتامر" وقوله فى الجمهرة[5] : "تقول

---

(١) إصلاح المنطق ٣٧٠ . الميم مضمومة والواو مشددة .

(٢) وانظر إصلاح المنطق ٣٤١، وتهذيب الألفاظ ٤٨٦، وشرح القصائد السبع الطوال ٥٣٥ .

(٣) ٣١٨ . الجيم مشددة مكسورة .

(٤) المزهر ٢ : ٢٧٥ .

(٥) ٣ : ٩٥ .

العرب: فلان أضيع من فلان: أى أكثر ضياعا منه. ولم يقله غيره" .

وآن الأوان لأترك صورة الألفاظ، وألتفت إلى معناها، وأتتبع الأمور التى عالجها ونبه عليها فى هذا الجانب. وإذ نفعل نرى أنه فطن الى أن بعض الألفاظ استخدمت للدلالة على معان معينة مدة من الزمان ثم أهملت لسبب ما فلم يعد الناس يستخدمونها، وعدّ هذا النوع من الألفاظ ميتا. قال ابن دريد[1] : "الغطر: فعل لمات، يقال: مر فلان يغطر بيديه: مثل يخطر سواء، هكذا يقول يونس" .

وقال أبو عبيدة[2] ليونس حين أنشده شعر الأسدى :

ومركضة صريحى أبوها تهان له الغلامة والغلام

أفتقول للجارية غلامة؟ قال: لا ، هذا من الكلام المتروك وأسماؤه زالت مع زوال معانيها كالمرباع والنشيطة، وبقى الصفايا" .

وأورد المعانى غير المعروفة للألفاظ الشائعة فى معان أخرى. قال ابن دريد[3]: "سرق الشىء: اذا خفى. هكذا يقول يونس، وأنشد:

وتبيت منتبذ القذور كأنما سرقت بيوتك أن تزور المرقدا

كأنما سرقت: أى خفيت". ولكنه لم يفعل ذلك حبا للغريب لذاته، بل كان يجعل معنى الشعر هو الحكم، فان اقتضى المعانى الغريبة أوردها، وإلا رفضها رفضا باتا، قال أبو عبيدة[4]: "قدم جعفر بن سليمان العباسى من عند المهدى الخليفة. فبعث إلى يونس بن حبيب فقال له: أنا وأمير المؤمنين اختلفنا فى هذا البيت:

---

(١) الجمهرة ٢ : ٣٦٩ .

(٢) الجاحظ: الحيوان ١ : ٣٢٩ .

(٣) الجمهرة ٢ : ٣٣٤ .

(٤) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

والشيب ينهض فى السواد كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

فما الليل والنهار؟ فقال يونس: الليل الليل الذى تعرف، والنهار النهار الذى تعرف. فقال: زعم المهدى أن الليل فرخ الكروان، والنهار فرخ الحبارى". وعقب أبو عبيدة على الخبر بقوله: "القول فى البيت ما قاله يونس، والذى قاله المهدى معروف فى الغريب من اللغة" .

وعنى بالمترادفات فأورد مجموعة منها كما كان يفعل أصحاب كتب النوادر واللغات والرسائل اللغوية على الموضوعات. قال ابن دريد[1]: "قال يونس: تقول العرب: فطر ناب البعير، وشقا نابه، وبقل، وبزغ، وصبأ: بمعنى واحد". وروى أبو عبيدة عنه[2]: "رجل لباب ومصاص وخيار، ويقال للاثنين والجميع على هذا اللفظ، لا يثنى ولا يجمع".

وكان يمحص الألفاظ قبل أن يحكم عليها بالترادف، فان وجد بينها أدنى خلاف أخرجها من حظيرة الترادف. قال التبريزى[3]: "قال يونس: الفقير: يكون له بعض ما يقيمه. والمسكين: الذى لا شىء له . قال الراعى :

أما الفقير الذى كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد

وقلت لأعرابى: أفقير أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين" .

ووجد مجموعة من الألفاظ تتقارب معانيها أو تترابط أو تتواصل، فأتى بها فى الموضع الواحد، وكشف ما بينها من تقارب وتباعد حتى تتضح معانيها كل الوضوح. قال السيرافى[4] : "قال يونس: تقول العرب: الآل: من غدوة الى ارتفاع

---

(١) الجمهرة ٣ : ٤٦٠ .

(٢) شرح النقائض ٤٦٨ .

(٣) تهذيب الألفاظ ١٥ . شرح ابن الأنبارى على المفضليات ٢٣٥ .

(٤) أخبار النحويين البصريين ٢٩ . نزهة الألباء ٣٢ .

الضحى الأعلى، ثم هو سراب سائر اليوم. وإذا زالت الشمس فهو فيء، وغدوة: ظل. وأنشد لأبى ذؤيب :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله وأقعد فى أفيائه بالأصائل

.. وكان كذا وكذا الليلة، تقول ذاك إلى ارتفاع الضحى، وإذا جاوز ذاك قالوا: كان البارحة". وقال ابن دريد[1] : "قال يونس: تزوج فلان فى شرية نساء: يريد حيا تلد نساؤهم الإناث. وتزوج فى عرارة نساء: يريد حيا تلد نساؤهم الذكور" .

ولم يقصر يونس جهوده اللغوية على اللفظ المفرد بل تعداه إلى العبارة المركبة، التى شعر بغرابتها وأنها لا تسير على النحو الشائع من العبارات ذات المعنى الغريب أو الخاص أو الأدبى. قال السيوطى[2] : "قال يونس: تقول العرب للرجل إذا لقى شرا: ثبت لبده، يدعون بذاك عليه، والمعنى دام ذلك عليه". وقال سيبويه[3] : "ذو صباح: بمنزلة ذات مرة، تقول: سير عليه ذا صباح. أخبرنا بذلك يونس عن العرب" وقال التبريزى[4] : "عن يونس: كسر فى ذلك أربا: إذا طمع فيه". وقال ابن السكيت[5] : "قولهم (لا دريت ولا أتليت) يدعو عليه بأن لا تتلى إبله أى لا يكون لها أولاد، عن يونس .. قال يونس: يقال: ما ثملت شرابى بشيء من طعام، ومعناه ما أكلت – قبل أن أشرب – طعاما، وذلك يسمى الثميلة" .

---

(١) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

(٢) المزهر ٢ : ٢٦٨ .

(٣) الكتاب ١ : ١١٥ .

(٤) تهذيب الألفاظ ٤٣٨ .

(٥) إصلاح المنطق ٣٥٥ ، ٣٩٤ .

ونجد بينها ما عرفه اللغويون باسم الاتباع، قال أحمد بن فارس[1]: "يونس: إنه شقيح لقيح". وقيل فى الشوارد: "هذا الشر والبر: إتباع" .

ونجد بينها ما جاءته الغرابة من تثنيـة مـا حقـه الإفـراد، قـال سـيبويه[2]: "قـد يثنون ما يكون بعضا لشيء.زعم يونس أن رؤبة كان يقول: ما أحسن رأسيهما"، أو التذكير والتأنيث غير القياسيين، قال ابن سـلام[3]: "سمعـت يونـس – وقيـل لـه: مـا يعنى الراعى بقوله:

يبيت الحية النضناض منـه مكان الحب يستمع السرارا

قال يونس: الحب: القـرط – أو قـال: الشـنف – والنضنـاض: الـذى يخـرج لسانه. قال يونس: يقولون: حية ذكر، ونعامـة ذكـر، وشـاة ذكـر، وبطـة ذكـر، ولم أسمعه منه". وجاء فى الشوارد عنه: "ليلة مقمر: مثل مقمـرة .. يقـال: كثـرت مـال فلان، يؤنثون المال كما أنثوا القوم. قال ا لله تعالى: "كذبت قوم نوح المرسلين" .

ودخلت الغرابة على بعض العبارات من تعدية الفعل اللازم. جاء فى الشوارد عنه: "مكرته: أى مكرت به .. وأمأه: أى أومأ إليه" .

ونخلص من دراسة ما وصل إلينا من أقوال يونس بـن حبيـب بأنـه كـان يعنـى باللفظ والعبارة. فعالج اللفظ من حيث صورته عندما تتعدد سواء بقى معنـاه واحـدا أو تعدد، والصور غير الشائعة له إذ اطرأ عليها تغيير غير قياسى، وعالجه مـن حيـث معناه المهجور، أو الباقى: المعروف منه وغير المعروف، والمترادفات، والمعانى المتقاربـة

---

(١) الاتباع والمزاوجة ٣٥ ، ٣٧ ، ٧٤ .

(٢) الكتاب ١ : ٢٤١ .

(٣) الطبقات ٤٣٤ .

مع شيء من التباعد. وعالج العبارات المركبة، وخاصة ذات الصبغة الأدبية العالية، مع شيء من الغرابة .

وأدى به ذلك إلى الانفراد بكثير من الألفاظ، لم يشاركه أحد فى روايتها عن العرب، كما رأينا ونرى فى قول ابن جنى[1]: "لم يأت فيما عينه ولامه من موضع واحد (فعلت) إلا حرفان فيما علمت، وهما لببت فأنت لبيب، حكاها يونس. قال لى أبو على: قال أبو إسحاق: سألت عنها ثعلبا فلم يعرفها. وحكى قطرب: شررت، فى الشر. وإنما تجنبوا (فعلت) بالضم فى المضاعف استثقالا للضمة مع التضعيف. فأما حبذا فأصلها لعمرى حَبُب إلا أنها لما لزمت الادغام فلم يظهر تضعيفها احتملت لذلك. وقد قالوا أيضا: دُمت فأنت تدم دمامة". وزاد ابن خالويه[2] إلى هذه الأفعال عززت الشاة: إذا قل لبنها .

ونستبين من هذه الأقوال أن منهج يونس كان يعتمد على رصد هذه الظواهر التى تخضع لها الألفاظ والعبارات العربية، لأنه عدها من الظواهر اللغوية. فما هذه الغرابة التى تتسم بها إلا لكونها ليست على اللغة الشائعة، وانما اللغات القبلية الأخرى. وقد أكثر من الاشارة الى أن ما يتحدث عنه "لغة" دون أن يبين إلى أية قبيلة تنتمى. ولكنه فعل ذلك فى بعض الأحيان، فأبان أنه عنى بلغة تميم والحجاز وأهل العالية وهذيل ويربوع (من بطون تميم) واليمامة وسليم .

وأعلن أنه يورد بعض ما يقول عن أستاذيه أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر، وعن مصدره الرئيسى رؤبة،وأخذ بعضه الآخر عن الأعراب.قال أبو عمر[3]:

---

(١) شرح المنصف ١ : ٢٤٠ . انظر المزهر ٢ : ٩٤ . يريد وزن كرم .

(٢) كتاب ليس ٢٦ .

(٣) شرح المنصف ٣ : ١٨ .

"سمعت يونس سأل أعرابيا .. فقال الأعرابى: كان أبى يقول: إنى لأبغض الامعة من الرجال. فقالوا له: ما الامعة؟ فقال: الذى يقول: من يذهب حتى أذهب معه" .

والحق إن يونس نفسه كان يميل إلى إيراد ما يورد من ألفاظ وتفسيرات فى شكل إخبارى أو حوارى، وكأنما وقعت بينه وبين الأعراب أحداث فعلا، وفى ظنى أن كثيرا منها من تخيله. قال[1]: "صنع رجل لأعرابى ثريدة ليأكلها، فقال له: لا تسقعها ولا تشرمها ولا تقعرها. قال له: فمن أين آكل لا أبالك؟ قال: كل من جوانبها. معنى تسقعها: تقشر أعلاها. وتشرمها: تخرمها. وتقعرها: تأكل من أسفلها". وقال الأصمعى عن يونس[2]: "سمعت أعرابيا يذكر مصدقا لهم فى كلامه قال: فلمقه بعد ما نمقه: أى محاه بعد ما كتبه" .

فهو يحس أن ذلك يقرب الألفاظ، ويحبب الطلبة فيها، وييسر حفظها. بل إنه ليروى الطرف التى لا تحتوى على الغريب ولكنها تحبب فيه. قال[3]: "كان جبلة بن عبد الرحمن يخرج إلى طباخه الرقاع يستدعى بها الطعام، وفيها الألفاظ الغريبة الحوشية، فلا يدرى الطباخ ما فيها حتى يمضى بها الى ابن أبى إسحاق ويحيى بن يعمر وغيرهما يفسرون ما فيها من الألفاظ. فاذا عرف الطباخ ما فيها أتاه بما استدعاه. فقال له يوما: ويحك إنى أصوم معك. فقال له الطباخ: سهل كلامك حتى يسهل طعامك. فيقول: يا ابن اللخناء أفأدع عربيتى لعيك" .

---

(١) ذيل الأمالى ١١٩ . مجالس ثعلب ٨ ، ٢٦ . المزهر ١ : ١٥٢ . المخصص ٥ : ١٢ . اللسان ١٠ : ٦٩، ١٥ : ٢١٤ .

(٢) الجمهرة ٣ : ١٦٣ . أبو الطيب: الأضداد ٦٤٩ .

(٣) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

وتبين لنا أن يونس كان يمحص الألفاظ قبل أن يحكم عليها. ولم يكن يأبى أن يعلن توقفه عندما يعجز عن بلوغ رأى يطمئن إليه فى لفظ ما.قال ابن سلام[1]: "سألت يونس عن قول ا لله جل وعز * كى لا يكون دولة * فقال: قال أبو عمرو ابن العلاء: الدولة فى المال، والدولة فىالحرب. قال: وقال عيسى بن عمر: كلتاهما فى الحرب والمال سواء. قال: أما أنا فوا لله ما أدرى ما بينهما" .

وبلغ من تمحيصه للألفاظ التى يدرسها أن أنكر مجموعة وصلت إليه ممن يجلهم من الأعراب، وأخذ على رؤبة وأبيه اشتقاقات اشتقاها على غير القياس عنده، حتى ضاق به رؤبة، وقال له ما ذكرته سابقا. ونقد ألفاظ بعض الشعراء الذين أثنى عليهم. قال أبو الفرج[2]: "سمعت ابن الأعرابى يقول: سئل يونس عن قول ابن قيس الرقيات:

ما مر يوم إلا وعندهما لحم رجال أو يالغان

فقال يونس: يجوز يولغان، ولا يجوز يالغان. فقيل له: فقد قال ذلك ابن قيس الرقيات، وهو حجازى فصيح. فقال: ليس بفصيح ولا ثقة، شغل نفسه بالشرب بتكريت" .

لا عجب إذن أن نرى يونس يشغل مرتبة لا تقل عن مرتبة أكابر علماء اللغة، وأن يناقشهم، فيأخذ عليهم أشياء، وتؤخذ عليه أشياء. حدث محمد بن سلام عنه أنه قال[3]: "النحويون يغلطون فى ثلاثة أشياء: يقولون فى نكاح أم خارجة:

---

(١) إصلاح المنطق ١٢٩ . المزهر ٢ : ٢٩٩ . فى المال بضم الدال، والحرب بفتحها .

(٢) الأغانى ٥ : ٨٨ .

(٣) المبرد: الفاضل ١١٦ . الكامل ٤٠٧ .

خِطْب، فتقول: نِكْح، وإنما هو نكح، ويقولون: ابنة الخس، وإنما هو الأخس مثل الأرز، ويقولون: ليس لحاقن رأى، وانما هو ذهن" .

وخطأ أستاذه عيسى مرة، قال محمد بن سلام[1]: "قلت ليونس بن حبيب: إن عيسى بن عمر قال: صحف أبو عمرو بن العلاء في الحديث: (اتقوا على أولادكم فحمة العشاء) فقال بالفاء وإنما هي بالقاف. فقال يونس: عيسى الذى صحف ليس أبا عمرو، وهي بالفاء كما قال أبو عمرو لا بالقاف كما قال عيسى" .

وخطأ أستاذه أبا عمرو في مرة أخرى. قال ابن سلام[2]: "قال لى يونس بن حبيب: كان عيسى بن عمر يتحدث في مجلس فيه أبو عمرو بن العلاء. فقال عيسى في حديثه: ضربه فحشت يده، بالضم. فقال أبوعمرو: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال عيسى: فحشت يده. قال أبو عمرو: فحشت يده. قال يونس: والتى رده عنها جيدة، يقال: حشت يده بالضم، وحشت بالفتح، وأحشت" .

وأزال عدة ظنون بالخطأ كانت تدور حول أبى عمرو[3] .

ولكنه لم يسلم مما يؤخذ عليه. فقد سبق أن رأينا تلميذه سيبويه[4] يضعف الصيغة التى رواها في الفعل يكع. كذلك خطأه تلميذ آخر له فى أحد الأفعال أيضا. قال أبو حاتم[5]: "قال لى أبو زيد الأنصارى: سألنى الحكم بن قنبر عن تعاهدت ضيعتى أو تعهدت، فقلت: تعهدت، لا يكون إلا ذلك. فقال لى: فاثبت لى

---

(١) المزهر ٢ : ٣٦٠ .

(٢) مجالس العلماء ١٥٧ .

(٣) العسكرى ٧٤ . أبو الطيب ١٩ . المزهر ٢ : ٣٩٩ .

(٤) ابن السراج ٦١ ظ .

(٥) السيرافى ٤٢ .

على هذا اذا سألك يونس فقل نعم. وكان الحكم بن قنبر سأل يونس فقال: تعاهدت. فلما جئت سأله، فقال يونس: تعاهدت، فقلت: لا . وكان عنده ستة من الأعراب الفصحاء فقلت: سل هؤلاء. فبدأ بالأقرب إليه فالأقرب، فسألهم واحدا واحدا، فكلهم قال: تعهدت. فقال: يا أباز زيد، رب علم كنت سببه، أو شيئا نحو هذا". وعاب عليه أبو زيد أيضا اتساعه فى اللغات[1].

ولكن ذلك لا يجعلنا نغض من مكانة يونس، التى اعترف بها أهل اللغة أنفسهم. قال بعض الأعراب له[2] وقد استحسن جوابا له: قضيت لك بالفقه، أى الفطنة. وروى يونس[3]: "سألنى جندل بن عبيد الراعى: ما معنى قول الراعى:

يبيت الحية النضناض منه مكان الحب يستمع السرارا

ما الحب؟ فقلت: القرط. فقال: خذوا عن الشيخ فانه عالم" .

بل ساوى بعض العلماء بين يونس وأبى زيد نفسه. قال المبرد[4]: "كان يونس من باب أبى زيد فى العلم باللغات". ويكفى للتدليل على دلالة هذا الحكم ومداه أن أورد القول التالى، الذى كان شائعا فى أوساط البصرة عن لغويها. كان يقال[5]: "كان الأصمعى يحفظ ثلث اللغة، وأبو زيد ثلثى اللغة، والخليل بن أحمد نصف اللغة، وعمرو بن كركة الأعرابى يحفظ اللغة كلها" .

---

(١) الزبيدى: الطبقات ١٨٢ .

(٢) شرح القصائد السبع الطوال ٢٩٥ .

(٣) ابن دريد: الاشتقاق ٣٨ .

(٤) السيرافى ٤١ . النزهة ٨٦ . الفهرست ٥٤ .

(٥) السيوطى: البغية ٢٥٤ .

النحو

إن أردنا أن نطلق على يونس بن حبيب لقبا علميا واحدا لا نعدوه، لم نحتر، ولم نكثر البحث، فقد كفانا تلاميذه مؤونة ذلك، واقتصروا على تلقيبه بالنحوى .

وإذ كان الأمر كذلك، وكان الرجل من المؤلفين، كنا نتوقع أن يخلف لنا كتابا أو أكثر، يدون فيه معارفه وآراءه النحوية. ولكن ذلك لم يكن، فان كتبه التى نعرف عناوينها تستهدف اللغة أكثر من النحو. ويبدو أنه شابه معاصره الخليل بن أحمد فى الاقتصار على تدريس النحو ومناقشة التلاميذ وعدم التدوين فكانت النتيجة عند الرجلين واحدة: أن آراءهما النحوية لم تصل إلينا إلا عن طريق تلميذ نابه، عنى بالنحو كل العناية، وسعى إلى إبانة آراء السابقين، وتدوينها، ومناقشتها، أعنى سيبويه فى الكتاب. فنحن لا نعرف مصدرا لآراء يونس غير الكتاب. وكان القدماء أنفسهم يشكون فى كل رأى ينسب إلى يونس، ما لم يكن مستقى من الكتاب. فقد روى المبرد فى المقتضب رأيا عزاه ليونس، فبحث عنه على بن عيسى الرمانى فى الكتاب. وعندما لم يعثر عليه، عقب عليه قائلا[1]: "ما أدرى من أين لأبى العباس هذه الحكاية عن يونس؟!" .

فالمصدر الرئيسى لما أنقله فى هذا الفصل من آراء يونس، بل المصدر الوحيد، كتاب سيبويه، ثم أرفده بما أجده من مناقشات فى غيره من كتب النحو .

ويبدو أن سيبويه أكثر من الأخذ عن يونس، وكان يرفع من قدره، فأكثر من النقل منه فى الكتاب، حتى ناهزت المرات التى ذكر اسمه فيها مئتى مرة[2]. وطبيعى

---

(١) مازن المبارك: الرمانى النحوى ١٤٦ .

(٢) مهدى المخزومى: الخليل بن أحمد ٢١٩ . على النجدى ناصف: سيبويه ٩٠ .

أن لا تكون هـذه المرات ممثلة لجهد يونس النحوى كله، لأن الطبيعى ألا يشير سيبويه إلى اسمه إلا حين يشذ أو يخالف غيره أو ينفرد أو يأتى بأمر يستحق التنويه .

ونحن عندما ننظر فيما رواه سيبويه عن يونس بعد استقصائه نجد فيه ظواهر عدة، تيسر علينا تصنيفه أصنافا مختلفة. وإذ كان المهم فى نظرنا أن نبرز جهد يونس الخاص، الذى يدل على تفكيره الذى انفرد به عن غيره، فإننى ألجأ الى ما يساعد على ذلك من تصنيف .

فأجد أول ما أجد مجموعة من الآراء النحوية تحدث بها يونس حقا، ولكنها ليست من ابتكاره، وإنما من ابتكار أحد شيوخه. فيونس راوية لا مبدع لها، وإن كان اقتصاره على روايتها دون التعقيب عليها يدل على أنه مرتض لها. ولكن دلالتها عليه ثانوية، ولذلك أكشف عنها، وأورد أمثلتها، دون أن أطيل فى مناقشتها واستنطاقها .

وأقدم من روى عنه من شيوخه عبد الله بن أبى أسحاق، الذى تتبع أخباره مع الفرزدق خاصة. وأمثل لما رواه عنه بقوله[1]: "فإن سميت المؤنث بـ "عمرو" أو "زيد" لم يجز الصرف، هذا قول أبى إسحاق وأبى عمرو، فيما حدثنا يونس" .

وقال الأستاذ على النجدى ناصف[2]: "أما جملة ما نقل سيبويه عن ابن أبى إسحاق فكانت أربعا كلها من النحو والاستشهاد له، وسنده فى الرواية هنا يونس، كما كان سنده هناك فى الرواية عن أبى عمرو" .

وهذا القول فيه تعميم جائر. فليس صحيحا أن كل ما رواه سيبويه عن ابن

---

(١) الكتاب ٢ : ٢٣ .

(٢) سيبويه ٩٦ .

أبي إسحاق كان عن طريق يونس. فان سيبويه أورد نقلين عنه مهملين، دون أن يلتفت أدنى التفات إلى من أخذهما عنه[1]، وأورد نقلا ثالثا مكتفيا بكلمة مبهمة تبين أنه لم يأخذه عن الرجل مباشرة، قال[2]: "ولو قلت: إياك الأسد، تريد من الأسد، لم يجز كما جاز في (أن) إلا أنهم زعموا أن ابن أبي اسحاق أجاز هذا البيت في شعر :

إياك إياك المراء فانه إلى الشر دعّاء وللشر جالب

كأنه قال: إياك، ثم أضمر بعد إياك فعلا آخر فقال: اتق المراء" .

كذلك يوجد في الكتاب نقول كثيرة تحوى أقوالا لأبي عمرو بن العلاء، أخذها سيبويه عن يونس، مثل قوله[3]: "زعم يونس أن أبا عمرو كان يقول: دارى من خلف دارك فرسخان، يشبه بقولك: دارك مني فرسخان، لأن (خلف) ها هنا اسم، وجعل (من) فيها بمنزلتها في الاسم" .

ولكنني لا أستطيع هنا أيضا أن أعمم القول بأن سنده في الرواية عن أبي عمرو هو يونس وحده، كما قال الأستاذ على النجدى ناصف، وأعتمد في ذلك على ما قاله هو في كتابه[4]: "وقد نقل سيبويه عن أبي عمرو ٤٤ مرة، يذكر في أكثرها أن الرواية عن يونس، ويضمر في أقلها السند أو يغفله جملة"، وما قاله أيضا[5]: "يقولون إن سيبويه أخذ الحروف عنه (يريد عن أبي عمرو). وفي الكتاب

---

(١) الكتاب١ : ٢٥٦ ، ٤٢٦ .

(٢) الكتاب ١ : ١٤١ .

(٣) الكتاب ١ : ٢٠٨ .

(٤) سيبويه ٩٤ .

(٥) سيبويه ٩٥ .

دليل على ذلك" . فان أقواله هذه تجعلنى لا أؤيده فى قوله السابق ولا فى قوله الآتى[1]: "أما النحو فالراجح أنه لم يأخذه عنه، فلم أر أحدا ذكره، وليس فى الكتاب دليل عليه" .

وأتى سيبويه ببعض الأقوال، التى أعلن أن أبا عمرو والخليل ويونس أتفقوا عليها. جاء فى الكتاب[2]: "إذا لقبت مفردا بمفرد أضفته الى الألقاب، وهو قول أبى عمرو ويونس والخليل، وذلك قولك: هذا سعيد كرز، وهذا قيس قفة قد جاء، وهذا زيد بطة .. فاذا لقبت المفرد بمضاف، والمضاف بمفرد، جرى أحدهما على الآخر كالوصف، وهو قول أبى عمرو ويونس والخليل، وذلك قولك: هذا زيد وزن سبعة، وهذا عبد الله بطة .. " .

ولم يصرح سيبويه: هل أخذ هذه الآراء من فم أبى عمرو أو من أحد تلاميذه. ولكن شهرتها وتداولها بين أكثر من تلميذ من تلاميذ أبى عمرو يجعلنا نرجح معرفة يونس بها، وبصدورها عن شيخه، ونرجح أن قوله هذا لا يعدو أن يكون ترديدا لما قال شيخه أمامه، وموافقة عليه .

وأورد سيبويه مجموعة من أقوال شيخيه: عيسى بن عمر، وأبى الخطاب الأخفش، وكشف أن يونس قال له ما يوافقها. جاء فى الكتاب[3]: "قد يقول بعض العرب: ارمْ، فى الوقف، واغزْ، واخشْ، حدثنا بذلك عيسى بن عمر ويونس. وهذه اللغة أقل اللغتين. جعلوا آخر الكلمة حيث وصلوا الى التكلم بها بمنزلة الأواخر التى تحرك مما لم يحذف منه شيء، لأن من كلامهم أن يشبهوا الشيء بالشيء وإن لم

---

(١) سيبويه ٩٥ .

(٢) الكتاب ٢ : ٤٩ . وانظر ٧ ، ١١ .

(٣) ٢ : ٢٧٨ .

يكن مثله فى جميع ما هو فيه". وجاء أيضا[1]: "ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب فى المعرفة، وذلك قولك: هذا عبد الله منطلق، حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عمن يوثق به من العرب" .

والظاهر من كلام سيبويه أن كلا من الرجلين ذكر له رأيه على حدة. يؤكد لنا ذلك قول سيبويه فى نقل آخر[2]: "يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما .." وقوله[3] زعم أبو الخطاب أن العرب الموثوق بهم يقولون: أنا هذا، وهذا أنا .. وحدثنا يونس أيضا تصديقا لقول أبى الخطاب: أن العرب تقول: هذا أنت تقول كذا وكذا، لم يرد بقوله: هذا أنت، أن يعرفه نفسه كأنك تريد أن تعلمه أنه ليس غيره، هذا محال، ولكنه أراد أن ينبهه كأنه قال: الحاضر عندنا أنت، والحاضر القائل كذا وكذا أنت" .

وإذن فلم يكن يونس هو الذى نقل هذه الأقوال الى سيبويه، بل سمعها سيبويه من أفواههم فى غالب الظن. ولكن الرجلين كانا شيخين ليونس، فهل سمع هو أيضا هذه الأقوال منهما. إن كان الأمر كذلك، كان ما رواه سيبويه عنه مجرد اتفاق مع ما سمعه من شيخه. وإلا فهو رأى خاص ليونس، اتفق مع آراء الرجلين. ولا شك أن من العسير أن نؤكد أحد الظنين، وإن كان الظن الأول أقرب الى الاحتمال .

وننتهى بهذا من الأقوال التى أعلن سيبويه أن يونس رواها له عن واحد من شيوخه، والتى رجحنا أنها كذلك، والتى يوجد احتمال أنها ليست من ابتداع الرجل. وننتقل الى هذا النوع الأخير من الأقوال، أو التى تدل ظواهر الأمور أنها

---

(١) ١ : ٢٥٨ .

(٢) ١ : ١٨٢ .

(٣) ١ : ٣٧٩ .

منه، إذ أننا لا نملك الدليل القاطع هنا أيضا أن يونس لم يكن مجرد راوية لهذه الأقوال أو بعضها غير أنه أغفل اسم الشيخ الذى يروى عنه. وكثيرا ما فعلوا ذلك. ومهما يكن من أمر، فنحن مضطرون الى الاعتماد على ما عندنا من أقوال، مهما كانت الأمور التى تشوبها. وانما أجأنا الى ذلك يونس نفسه اذ لم يعن باصدار كتاب يحفظ لنا أقواله. ولما كنا قد بدأنا الحديث بما رواه عن شيوخه، كان واجبا علينا أن نستمر فيه، ونبين أن الرجل لم يلغ شخصيته أمامهم، وتقبل كل ما قالوا دون تمحيص أو مناقشة. بل كل الدلائل تدل أنه كان يمعن الفكر فيما يسمع، وأن هذا الفكر كان يؤدى به كثيرا الى الموقف المستقل .

وكما بدأنا بما رواه عن عبد الله بن أبى اسحاق آنفا، نبدأ هنا بما خالفه فيه. ويبدو أن إعجاب يونس بالفرزدق جعله يعارض شيخه فى موقفه منه أو لا يتابعه فيه على الأقل، وخاصة أن الصلة بين الشيخ والتلميذ لم تدم طويلا فيما يبدو، أو لم تشتد أواصرها. فتوقف مرة، موافقا فى ذلك شيخه الآخر الذى كان يحترمه كل الاحترام. قال ابن سلام[1]: "قال يونس: وقال ابن أبى أسحاق فى بيت الفرزدق:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجرف

.. قال أبو عمرو بن العلاء: لا أعرف لها وجها. وكان يونس لا يعرف لها وجها. قلت ليونس: لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه. فقال: لا، كان ينشدها على الرفع، وأنشدنيها رؤبة بن العجاج على الرفع" .

وعارض يونس ابن أبى إسحاق فى مرة أخرى، إذ اهتدى الى وجه من التعليل لم يفطن إليه شيخه، قال ابن سلام[2] : "أخبر يونس أن ابن أبى إسحاق قال

---

(١) الطبقات ١٩ . الموشح ١٠١ .

(٢) الطبقات ١٦ . الموشح ٩٩ .

للفرزدق فى مديحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام – تضربنا بحاصب كنديف القطن منثورِ

على عمائمنا يلقى وأرحلناَ على زواحف تزجى، مخها ريرِ

قال ابن أبى إسحاق: أسأت، انما هى (ريز)، وكذلك قياس النحو فى هذا الموضع. وقال يونس: والذى قال جائز حسن .." ذهب يونس إلى وقوع تقديم وتأخير، والترتيب الطبيعى للعبارة: ريز مخها .

وتعطينا هذه المعارضة واحدة من الخصائص التى تفرق بين الرجلين. فقد وضح أن ابن أبى إسحاق كان يسرع إلى تخطئة المتكلم مهما كانت فصاحته، وكان نقاؤه العربى. أما يونس فيظهر غير ذلك، بل يبحث عن المنافذ التى تجعله يحكم بالسلامة أولا، فإن عجز عن العثور عليها، توقف حائرا، ولم يهرع إلى التخطئة .

وفى كتاب سيبويه مواضع تدل على أن يونس عارض أستاذه فى غير شعر الفرزدق، وفى آراء لم ينفرد بها بل تابعه فيها بعض أئمة النحو. جاء فى الكتاب[1]: "ومن هذا الترحم. والترحم يكون بالمسكين والبائس ونحوه ولا يكون بكل صفة ولا كل اسم، ولكن ترحم بما ترحم به العرب. وزعم الخليل أنه يقول: مررت به المسكينِ، على البدل، وفيه معنى الترحم. وبدله كبدل: مررت به أخيك .. وكان الخليل يقول: إن شئت رفعته من وجهين، فقلت: مررت به البائسُ، كأنه لما قال: مررت به، قال: المسكين هو، كما يقول مبتدئا: المسكين هو، والبائس أنت. وإن شاء قال: مررت به المسكينَ .. وفيه معنى الترحم كما كان فى قوله: رحمة الله عليه، معنى رحمه الله. فما يترحم به يجوز فيه هذان الوجهان، وهو قول الخليل ..

---

(١) ١ : ٢٥٥ .

وأما يونس فزعم أنه ليس يرفع شيئا من الترحم على إضمار شيء يرفع، ولكنه إن قال: ضربته، لم يقل أبدا الا المسكينَ، يحمله على الفعل، وإن قال: ضربانى، قال: المسكينان، حمله أيضا على الفعل، وكذلك: مررت به المسكينِ، يحمل الرفع على الرفع، والجر على الجر، والنصب على النصب، ويزعم أن الرفع الذى فسرنا خطأ، وهو قول الخليل وابن أبى اسحاق" .

وروى سيبويه[1] واحدة من مسائل النعت السببى اختلف فيها يونس مع أستاذه عيسى بن عمر. فقد اتفق الاثنان على التفرقة فيه بين أنواع شتى. فرفعا ما كان غير منون دالا على علاج يُرى كالضارب والكاسر. أما الثابت غير الدال على علاج يرى كالآخذ والمخالط فاتفقا على نصبه إذا كان دالا على عمل واقع. ثم اختلفا فى غير الواقع منه فذهب عيسى إلى تبعيته لما قبله، ويونس إلى أنه مرفوع. وقد خالفهما سيبويه فذهب إلى أن الصفة الدالة على العمل تتبع ما قبلها فى الاعراب، سواء أكانت منونة مثل (مررت برجل مخالطٍ بدنه داء) أم غير منونة وأراد المتحدث معنى التنوين مثل (مررت برجل مخالطِه داء)، وسواء أكانت الصفة دالة على علاج يرى أم دلت على عمل ثابت ليس فيه علاج، وسواء أدلت على عمل واقع أم عمل غير واقع. وأورد من الأدلة ما أبطل كل حجة للرجلين .

ولم يقف يونس عند هذا بل خالف أقرب شيوخه إلى قلبه، وأعظمهم فى عينه: أبا عمرو بن العلاء. ولم يخالفه جاهلا برأيه، بل كان عارفا به وراويا له. جاء فى الكتاب[2]: "قال يونس: من صرف (هندا) قال: هذه هندٌ بنت زيد، فنون (هندا) لأن ذا موضع لا يتغير فيه الساكن ولم تدركه علة، وهكذا سمعنا من العرب.

---

(١) ١ : ٢٢٨ .

(٢) ٢ : ١٤٨ .

وكان أبو عمرو يقول: هذه هندُ بنت عبد الله، فيمن صرف. ويقول: لما كثر في كلامهم حذفوه كما حذفوا (لا أدرِ) و (لم يك) و (لم أبل) و (خذ) و (كُل) وأشباه ذلك، وهو كثير". ولم يتدخل سيبويه في القولين، مقتصرا على حكايتهما. ولعل السبب جواز الرأيين عنده، إذ روى كل من الرجلين عن العرب، فذكر أحدهما القاعدة العامة، وذكر الآخر ما يفعلونه على غير قاس للتخفيف .

وخالف يونس[1] أستاذه في النسب إلى الأسماء المعتلة الآخر بالياء أو الواو مع سكون ما قبلهما. فقد روى هو نفسه أن أبا عمرو كان يقول في النسب إلى ظبية: ظبيي. وخالفه وكان يقول في: ظبية: ظبوي، وفي دمية: دموي، وفي فتية: فتوي .

وقد فصل سيبويه المسألة فكشف عن جميع أركانها. فذكر أن هذه الأسماء إذا كانت خالية من تاء التأنيث اتفق جميع النحاة في النسب إليها، فقالوا في ظبي: ظبيي، وفي غزو: غزوي. وعلل سيبويه ذلك بأن حرف العلة في هذه الألفاظ جرى مجرى الألفاظ الصحيحة ولم يُعلّ. وعلله الرضي الاستراباذي[2] بحصول الخفة بسكون العين وصحتها وعدم ما يجرئ على التغيير .

فاذا اتصلت تاء التأنيث بها اختلف النحاة. إذ لم يفرق أبو عمرو بين الخالي من التاء والمتصل بها، وجعل النسب إلى ظبية: ظبيي، وإلى غزوة: غزوي، أيضا. وكان تعليق سيبويه على هذا الرأى أنه القياس، ولا ينبغي أن يكون القياس إلا هذا. وعلله بأننا عددنا الكلمة مثل الكلمات غير المعتلة، وهذه الكلمات لا يؤثر فيها وجود تاء التأنيث أو خلوها منها، فكذلك ما ماثلها من كلمات معتلة .

---

(١) الكتاب ٢ : ٧٤ . الخصائص ٢ : ١٠٦ .

(٢) شرح الشافية ٢: ٤٨ .

أما يونس فخالف بين الكلمة عند دخول التاء عليها، وقال إننا إذا نسبنا الى ظبية قلنا: ظبوى، وإلى فتية قلنا: فتوى، وإلى دمية قلنا: دموى، من اليائى، واذا نسبنا من الواوى إلى غزوة قلنا: غزوى، وإلى عروة: عروى، فلا فرق عنده بين الواوى واليائى .

وكان المعقب على الرأيين فى هذه المرة الخليل بن أحمد، فأعلن أن الأول أقيسهما وأعربهما. ولكنه لم يرفض رأى يونس جملة وتفصيلا، بل قبله فى الكلمات اليائية. وعللها بأنهم شبهوا فعلة بفعلة، وفعلة بفعلة، وفعلة بفعلة[1]، لأنك لو بنيت فعلة من بنات الواو لصارت ياء، فلو أسكنت العين على ذلك المعنى لثبتت ياء ولم ترجع إلى الواو، فلما رأوها متشابهة الأواخر جعلوا النسب إليها واحدا. واعتمد فيه أيضا على السماع من العرب إذ أنهم نسبوا إلى بنى البطية فقالوا بطوى .

وقصر الرضى الاستراباذى هذا التغيير على الثلاثى لأن مبناه على الخفة، فطلبت بقدر الإمكان، وعلى ما فيه التاء من الكلمات، لأن حذفهم التاء عند النسب جرأهم على تحريك الساكن، مع قصد التفرقة بين المذكر والمؤنث. فأجروا التغيير على الكلمات اليائية لتخف بقلب الياء واوا ثم حملوا الكلمات الواوية عليها طردا للباب .

ورفض الخليل رأى يونس فى الكلمات الواوية، وقال: لا أقول فى غزوة إلا: غزوى، وفى غدوة إلا غدوى. وعلل رأيه بأن فعلة وفعلة من الواوى لا تشبه فعلة وفعلة، وأن فعلة من الواوى إذا كانت واحدة فعل تكون بالياء، ولو لم تكن على فعل للزم الحرف الذى قبلها التحريك ولم تشبه غدوة، وإن أسكنت ما قبل الواو فى فعلة من الواوى الذى ليس واحده فعل فحذفت الهاء لم تغير الواو لأن ما قبلها

---

(١) الأوليان بفتح الفاء، والثانيتان بضمها، والثالثتان بكسرها، والعين الأولى فى كل مجموعة ساكنة وفى الثانية متحركة .

ساكن. واعتمد أيضا على السماع فذكر أن العرب حين نسبوا الى بنى جروة قالوا: جروى. ووافقه سيبويه فى رأيه هذا .

وزاد الاسترابادى علة أخرى تفرق بين اليائى والواوى من هذه الكلمات، قال: "ذوات الياء بتحريك عينها تنقلب ياؤها واوا، فتخف شيئا، وإن كان يحصل بالحركة أدنى ثقل، لكن ما يحصل بها من الخفة أكثر مما يحصل بالحركة أدنى ثقل، وأما ذوات الواو فيحصل بتحريك عينها ثقل من دون خفة" .

واختلف يونس[1] مع أستاذيه عيسى وأبى عمرو فى تصغير معتل العين واللام، وأدلى برأى فضله سيبويه على ما جاء به الرجلان. ذهب عيسى الى أن تصغير أحوى هو: أُحى، مصروفا. ولكن سيبويه خطأ هذا القول، وقال: "لو جاز ذا لصرفت (أصمّ) لأنه أخف من أحمر، وصرفت أرأس إذا سميت به ولم تهمز فقلت: أرسّ".

وذهب أبو عمرو الى أن تصغيره هو: أُحَيّ. فخطأه سيبويه أيضا وقال: "لو جاز ذا لقلت فى عطاء: عُطيٌّ، لأنها ياء كهذه الياء وهى بعد ياء مكسورة، ولقلت فى سِقاية: سُقيية، وشاوٍ: شُوىٌّ". أما يونس فذهب ألى أن تصغيره هو: أُحىُّ. فارتضى سيبويه هذا الرأى وعقب عليه قائلا: "هو القياس والصواب"، وعلل ذلك بقوله: "لأن هذه اللام (يريد لام الكلمة) إذا كانت بعد كسرة اعتلت واستثقلت فى .. غير المعتل. فلما كانت كسرة فى ياء قبلها ياء التحقير ازدادوا لها استثقالا فحذفوها .. ولا تصرفه لأن الزيادة ثابتة فى أوله، ولا يلتفت إلى قلته كما لا يلتفت إلى قلة يضع".

نتبين مما سبق أن يونس بن حبيب عنى بما كان لشيوخه من آراء لغوية ونحوية، فاحتفظ بها ورواها لتلاميذه. وتسود هذه المرويات الظواهر التى سادت مروياته فى

---

(١) الكتاب ٢ : ١٣٢ .

الحقول الأخرى. فقد كان أكثر إقبالا على أبى عمرو، وروايـة عنـه، واتفاقا معه. ففاق ما رواه عنه كل ما روى عن بقية شيوخه مجتمعين، بـل بلـغ أضعافـه، وبـالرغم من إعجابه بعبد ا لله بن أبى اسحاق، وقف منه موقف النـد، وعارضـه فـى كثير مما قاله، معارضة مهمة، إذ تعتمد على نظرة كل من الرجلين إلى التراث العربى. ووقف من عيسى موقفا متوسطا، فلم يقلل من الرواية عنه ويكثر من الاعتراض عليـه كمـا فعل مع ابن أبى إسحاق، ولم يختـف بـه احتفاءه بـأبى عمـرو. أمـا روايتـه عـن أبـى الخطاب الأخفش فمن القلة بحيث لا تيسر لنا سبيلا إلى تصور العلاقة بينهما .

وحان الوقت الآن لنضع يونس بين معاصريه، أو إن تحرينـا الدقـة: لنضعـه إلى جوار تربه الخليل بن أحمـد، ليلقـى كـل منهمـا الضـوء علـى الآخـر، ويكشـف مـن جوانب شخصيته ما لا تكشفه دراسة الفرد على ضوء من شيوخه .

وأتبع النهج نفسه الذى اتبعته فى هذا الفصل كله. فأستهل الحديـث بـالآراء التى اتفق فيها الرجلان. وقـد تبـين لنـا أنهمـا اتفقـا فـى بعـض الآراء التـى أخذاهـا منفردين أو مجتمعين عن شيخهما أبى عمرو. ولكن يتجلى من كتاب سـيبويه أنهمـا اتفقا أيضا فى كثير من الآراء، التى لايوجد دليل أو إشارة علـى أنهمـا تلقياهـا عـن شيخ لهما. مثـال ذلـك قـول سـيبويه[1]: "سـألت الخليـل ويونـس عـن نصـب قـول الصلتان العبدى:

أيا شاعرا لا شاعـر اليـوم مثلـه جرير، ولكن فى كليب تواضع

فزعما أنه غير منادى، وانما انتصب على إضمار، كأنه قـال: يـا قـائل الشـعر شاعرا. وفيه معنى حسبك به، كأنه حيث نادى قال: حسبك به، ولكنه أضمره كما

---

(١) الكتاب ١ : ٣٢٨ ، وانظر ٣٧٢ .

أضمروا فى قوله: تا لله رجلا، وما أشبهه" . وفى بعض الأحيان وقع الاتفاق بين الرجلين فى النتيجة التى وصلا إليها. ولكننا لا نعرف العلل التى أدت بيونس إلى نتيجته، على حين كشف سيبويه عن علل الخليل. قال[1]: "هذا باب ما لا يجوز أن يندب، وذلك قولك: وارجلاه، ويا رجلاه. وزعم الخليل ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال. وقال الخليل إنما قبح لأنك أبهمت، ألا ترى أنك لو قلت: واهذاه، كان قبيحا لأنك إذا ندبت فانما ينبغى لك أن تفجع بأعرف الأسماء، وأن تختص فلا تبهم لأن الندبة على البيان .. " .

وفى بعض الأحيان أعلن اتفاق الرجلين، وأتى بالعلة مغفلة فلم يبين هل هى من عنده أو من عند أحد الرجلين أو من عندهما معا، ولعل الفرض الأخير أرجحها، قال[2]: "هذا باب ما يكرر فيه الاسم فى حال الاضافة، ويكون الأول بمنزلة الآخر، وذلك قولك: يا زيد زيد عمرو، ويا زيد زيد أخينا، ويا زيد زيدنا. زعم الخيل ويونس أن هذا كله سواء، وهى لغة للعرب جيدة. وقال جرير :

يا تيم تيم عدى لا أبا لكم لا يلفينكم فى سوأة عمر

.. وذلك لأنهم قد علموا أنهم لو لم يكرروا الاسم صار الأول نصبا، فلما كرروا الاسم توكيدا تركوا الأول على الذى كان يكون عليه لو لم يكرروا" .

والتزم سيبويه فى أكثر الأحيان الأقوال التى اتفق عليها الرجلان، وعدها القياس لما تتعلق به من قواعد، إذ أن الكلام العربى الفصيح يندرج تحتها، والعلماء الثقات لا يختلفون معها. قال[3] "أما ما جاء مثل تَوْلب ونهشل فهو عندنا من نفس

---

(١) الكتاب ١ : ٣٢٤ . وانظر ١ : ٤٦١ ، ٢ : ١٥٥ .

(٢) الكتاب ١ : ٣١٤، وانظر ٣٧٥ .

(٣) الكتاب ٢ : ٣ . وانظر ١ : ٤٧٤ ، ٢ : ١٣ ، ٤٢ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٣٣، ٢٨٣ ، ٤١٠ .

الحرف مصروف، حتى يجيء أمر يبينه، وكذلك فعلت به العرب، لأن حال التاء والنون فى الزيادة ليس كحال الألف والياء لأنهما لم تكثرا فى الكلام زائدتين ككثرتهما، فان لم تقل ذلك دخل عليك أن لا تصرف نهشلا ونهسرا. فهذا قول الخليل ويونس والعرب". وقال[1]: ".. وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء".

وكان ينافح عن رأيهما ويدحض ما خالفه من آراء، كما فعل فى الضمائر الواقعة بعد لولا، قال[2]: "إذا أضمرت الاسم فيه جُر، وإذا أظهرت رُفع. ولو جاءت علامة الإضمار على القياس لقلت، لولا أنت، كما قال سبحانه (لولا أنتم لكنا مؤمنين) ولكنهم جعلوه مضمرا مجرورا. والدليل على ذلك أن الياء والكاف لا تكونان علامة مضمر مرفوع . قال الشاعر :

وكم موطن لولاى طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوى

وهذا قول الخليل ويونس. وأما قولهم: عساك، فالكاف منصوبة. قال الراجز :

* يا أبتا علك أوعساكا *

والدليل على أنها منصوبة أنك إذا عنيت نفسك كانت علامتك (نى) قال عمران بن حطان :

ولى نفس أقول لها إذا ما تنازعنى: لعلى أو عسانى

فلو كانت الكاف مجرورة لقال: عساى. ولكنهم جعلوها بمنزلة (لعل) فى هذا الموضع. فهذان الحرفان لهما فى الإضمار هذه الحال، كما كان للدن حال مع

---

(١) الكتاب ٢: ٤٢ .

(٢) الكتاب ١ : ٣٨٨. وانظر المسألة ٩٧ فى كتاب الإنصاف لابن الأنبارى ص٦٨٧. وفى الرمانى لمازن المبارك ٢٨٧ .

غدوة ليست مع غيرها، وكما أن لات إن لم تعملها فى الأحيان لم تعمل فيما سواها فهى معها بمنزلة ليس فاذا جاوزتها فليس لها عمل .. وزعم ناس أن الياء فى لولاى وعسانى فى موضع رفع، جعلوا لولاى موافقة للجر و (نى) موافقة للنصب كما اتفق الجر والنصب فى الهاء والكاف. وهذا وجه ردىء لما ذكرت لك، ولأنك لا ينبغى لك أن تكسر الباب وهو مطرد تجد له وجها، وقد يوجه الشىء على الشىء البعيد إذا لم يوجد غيره، وربما وقع ذلك فى كلامهم" .

فلا عجب إذن أن يغترف سيبويه من هذه المسائل التى اتفقا فيها. وقد اعترف بذلك فى أبواب من التصغير، فقال[1]: "وجميع ما ذكرنا قول يونس والخليل" وقال فى أبواب من النداء[2]: "اعلم أن كل شىء ابتدأناه فى هذين البابين أولا هو القياس، وجميع ما وصفنا من هذه اللغات سمعناه من الخليل ويونس عن العرب" .

وكان طبيعيا أن يختلف الرجلان فى بعض المسائل، وكل منهما على ما هو عليه من تفكير واجتهاد واستقلال بالرأى. وقد أورد سيبويه جملة من هذه المسائل التى اختلفا فيها. واقتصر فى قليل منها على دور الراوية، فلم يرجح واحدا منها على الآخر، إذ صح لديه القولان. قال[3]: "سألت الخليل عن قوله:

ألا رجلا جزاه ا لله خيرا يدل على محصلة تبيت

فزعم أنه ليس على التمنى، ولكنه بمنزلة قول الرجل: فهلا خيرا من ذلك، كأنه قال: ألا ترونى رجلا جزاه ا لله خيرا . وأما يونس فزعم أنه نون مضطرا. وزعم أن قوله: (لا نسبَ اليوم ولا خلةَ) على الاضطرار .. والذى قال مذهب" .

---

(١) ٢ : ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) ١ : ٢١٨ .

(٣) ١ : ٣٥٦ .

ولكن سيبويه مال فى أكثر المواضع التى اختلفا فيها إلى رأى الخليل، وفضله على رأى يونس. قال مثلا[1]: "إذا حقرت رجلا اسمه (قبائل) قلت: قُبيئل، وإن شئت قلت: قبيئيل، عوضا مما حذفت. والألف أولى بالطرح من الهمزة لأنها كلمة حية لم تجئ للمد، وانما هى بمنزلة جيم مساجد وهمزة برائل، وهى فى ذلك الموضع والمثال، والألف بمنزلة ألف عذافر، وهذا قول الخليل. وأما يونس فيقول: قبيِّل، يحذف الهمزة إذ كانت زائدة كما حذفوا ياء قراسية وياء عفارية. وقول الخليل أحسن كما أن عفيرية أحسن" .

وحكم على رأى يونس فى بعض الأحيان أنه مذهب، ولكن السماع عن العرب يخالفه. قال[2]: "سألته عن قوله: من دونٍ، ومن فوق، ومن تحت .. فقال: أجروا هذا مجرى الأسماء المتمكنة لأنها تضاف وتستعمل غير ظرف. ومن العرب من يقول: من فوقُ، ومن تحت، يشبهه بقَبْل وبعد .. وكذلك من أمامٍ، ومن قدام، ومن وراء .. وزعم أنهن نكرات كقول أبى النجم :

* يأتى لها من أيمن وأشمل *

وزعم أنهن نكرات إذا لم يضفن إلى معرفة كما يكون أيمن وأشمل نكرة. وسألنا العرب فوجدناهم يوافقونه .. وأما يونس فكان يقول: من قدامَ، ويجعلها معرفة. وزعم أنه منعه من الصرف أنها مؤنثة .. وهذا مذهب، إلا أنه ليس يقول أحد من العرب" .

وبالرغم من ذلك توجد بعض المواضع التى فضل فيها سيبويه قول يونس على قول الخليل . وعلل ذلك بأن رأى الخليل خالف المألوف من كلام العرب، قال

---

(١) ٢ : ١١٧ . وانظر ١٣٧ .

(٢) ٢ : ٤٦ - ٧٠ .

فى تصغير سفرجل وفرزدق ونحوهما[1]: "فتحقير العرب هذه الأسماء سُفيرج وفريزد .. وإن شئت ألحقت فى كل اسم منها ياء قبل آخر حروفه عوضا. وانما حملهم على هذا أنهم لا يحقرون ما جاوز ثلاثة أحرف إلا على زنته وحاله لو كسروه للجمع، إلا أن نظير حرف اللين الثالث الذى فى الجمع الياء فى التصغير، وأول التصغير مضموم، وأول الجمع مفتوح .. فالتصغير والجمع بمنزلة واحدة فى هذه الأسماء .. وإنما منعهم أن يقولوا: سفيرجل، أنهم لو كسروه لم يقولوا: سفارجل .. وهذا قول يونس. وقال الخليل: لو كنت محقرا هذه الأسماء لا أحذف منها شيئا – كما قال بعض النحويين – لقلت: سُفَيرجْل – كما ترى – حتى يصير بزنة دنينير. فهذا أقرب وإن لم يكن من كلام العرب" . وقد انتشر رأى يونس هذا، وكانت له الغلبة فى كتب النحو بعد أن ارتضاه سيبويه .

وحكم أحيانا على رأى الخليل بالبعد[2]، ورأى يونس بالقوة. قال مثلا[3]: "سألت الخليل عن القاضى فى النداء، فقال: أختار: يا قاضى، لأنه ليس بمنون كما أختار هذا القاضى. وأما يونس فقال: يا قاض. وقول يونس أقوى، لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا فى غير النداء كانوا فى النداء أجدر لأن النداء موضع حذف: يحذفون التنوين، ويقولون: يا حار، وصاح، ويا غلام .." ويبدو أن سيبويه غفل عن أن حذف الياء من (قاضى) كان بسبب التنوين، فلما يحذف التنوين لا يوجد سبب للحذف.

وتدلنا هذه الأمثلة القليلة من الفيض الغزير فى كتاب سيبويه أن يونس بن حبيب كان شخصية مستقلة، تأخذ من شيوخها، فتتفق معهم بقدر وبعد تمعن، وتختلف

---

(١) ٢ : ١٠٦ .

(٢) ١ : ٤٢٩ .

(٣) ٢ : ٢٨٩ .

معهم حين ترى رأيا غير ما قالوا. فلا تبالى باتفاق ولا اختلاف، وإذ كان شيوخ يونس أئمة المدرسة البصرية، كان كل اختلاف بينه وبينهم مبعدا بينه وبين هذه المدرسة، وخاصة إذا اتفق معاصره الخليل مع الشيوخ. ولكن العامل الأول الذى باعد بينه وبين المدرسة البصرية هو اختلافه مع الخليل. فقد وجد الخليل تلميذا مخلصا معجبا، دوّن آراءه، وفسرها، وعللها، ونافح عنها، فى كتاب. ولم يجد يونس غير ذلك التلميذ يفعل معه الأمر نفسه. ولكن نظرة التلميذ للرجلين لم تكن واحدة .

وبالرغم من ذلك لم يعدم يونس من يتقبل بعض هذه الآراء التى خالف فيها شيوخه ومعاصريه. فقد جلس بين يديه جماعة من أهل الكوفة، وجدوا فيه – بعد وفاة الخليل – أعظم النحاة، واغترفوا من علمه، وتقبلوا بعض آرائه ودافعوا عنها. وأضرب مثالا لذلك بآرائه فى إعمال حرف الجر المحذوف[1]، والندبة[2]، ونون التوكيد الخفيفة[3]. ولكننى يجب أن أعترف أنهم خالفوه فى بعض أقواله. فقد أجاز التمييز بغير، تقول: "لى عشرون غيره" ومنع ذلك الفراء[4]. واشترط البصريون لاعمال (ما) عمل ليس ألا ينتقض النفى بها نحو ما زيد إلا قائم. أما يونس فأغفل هذا الشرط وأجاز أن تقول: ما زيد إلا قائما. ولم يوافقه الكوفيون كل الموافقة، ولا خالفوه كل المخالفة، بل فصلوا الأمر. فذهبوا الى أنه إذا كان ما بعد إلا منزلا منزلة ما قبلها أعملت نحو ما زيد إلا زهيرا، أما إذا كان هو الأول نفسه فمنعوا إعمالها مثل ما زيد إلا أخوك. وأجاز الفراء الإعمال أيضا إذا كان ما بعد إلا وصفا نحو ما زيد إلا قائما[5] .

---

(١) الإنصاف ٣٩٣ . الأشونى ٣٠١ .

(٢) الإنصاف ٣٦٤ . الفراء ١٣٤ . الأشونى ٤٦٥ .

(٣) الإنصاف ٦٥٠ . الفراء ١٣٣ . الخصائص ١ : ٨٨ ، ٩٢ . الأشونى ٥٠٣ .

(٤) أبو حيان: منهج السالك ٢٢٠ .

(٥) أبو حيان ٦٢ .

ووجد يونس من النحاة بعد عصره الموقف نفسه، رفضوا منه بعض ما قال، وقبلوا بعضه. علق أبو حيان[1] على البيت :

أفيقوا بنى حرب وأهواؤنا معا وأرحامنا موصولة لم تقصب

فقال: واختلف النحويون فى هذه الفتحة التى فى (معا). فذهب سيبويه والخليل الى أنها فتحة إعراب كفتحتها حالة الإضافة والكلمة ثنائية اللفظ حالة الإفراد وحالة الاضافة .. وذهب يونس والأخفش الى أنها كفتحة تاء فتى، وأنه حين أفردت رد إليها المحذوف وهو لام الكلمة فصار مقصورا. وقال المصنف: هو الصحيح. يعنى مذهب يونس والأخفش .. والصحيح ما ذهب إليه سيبويه والخليل"

وارتضى أبو حيان مذهب يونس فى العطف على المجرور دون إعادة جاره[2]، وعدم العطف بلكن[3]، وبعض المسائل الأخرى[4] .

ونخلص من دراسة ما بقى من اقوال نحوية أدلى بها يونس بن حبيب أن كثيرا منها نطق به ردا على أسئلة وجهت إليه، فى قضية نحوية آونة، وفى بيت من الشعر أخرى، وفى آية من القرآن ثالثة. وكان يونس فى بعض الأحيان هو الذى يطرح القضية أو ينشد الشعر لاستطلاع رأى تلاميذه، ثم يأتى بما عنده .

وعندما نستقصى هذه الأقوال، ونصنفها، نكاد لا نجد بابا من أبواب النحو ليس للرجل أقوال فيه. وبالرغم من ذلك يلفت النظر منا الأبواب الصرفية. فقد كان له فيها جولات أكثر وأبرز من جولاته فى أبواب النحو. ونضع على رأى

---

(١) ٢٩٥ .

(٢) البحر المحيط ٢ : ١٤٧ - ٨ .

(٣) البحر المحيط ١ : ٣٢٧ . ارتشاف الضرب ٢٧٣ .

(٤) منهج السالك ١٨٦ .

الأبواب الصرفية التصغير، والنسب، والجموع، ثم صيغ الفعل .

ولذلك اعتمد عليه سيبويه في بعضها اعتمادا تاما. وأعلن في أحد أبواب التصغير[1]: "وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس" . فاذا وضعنا إلى جانب هذين البابين أبواب النسب التي اعتمد فيها على يونس والخليل تبين لنا قدر ما أخذه سيبويه من شيخه .

ويلفت النظر في النحو أبواب النداء التي اعتمد عليه سيبويه فيها وعلى الخليل. اعتمادا كبيرا، وأبواب الممنوع من الصرف، والاستثناء، والضمائر، والنعت .

ولم يكن كل ما تفوه به من أقوال من ابتكاره، بل كثيرا ما روى عن شيوخه، وأكثر الرواية عن أبي عمرو منهم. ولم يلغ شخصيته أمام أقوالهم، بل الواضح أن كل ما رواه عنهم ولم يعقب عليه كان موافقا عليه. أما ما لم يوافق عليه فلم يقتصر على روايته بل كشف عن رأيه فيه، حتى لو خالف فيه أكثر من واحد من أساتيذه، بل لو خالفهم وخالف معهم بعض معاصريه.

وأدى به ذلك الى الانفراد بمجموعة من الآراء التي لم يتابعه فيها جمهور البصريين، أو لم يجد رفيقا فيها غير بعض من جاء بعده منهم كأبي الحسن الأخفش، أو وجد رفاقا له فيها خارج بلدته، ساروا معه في بعضها الشوط كله، وفي بعضها الآخر بعض الشوط. ثم منحته الأجيال التالية واحدا أو أكثر ممن رضوا عن هذا الرأي أو ذاك من آرائه .

وكان طبيعيا من معاصريه، وخاصة من البصريين، أن يصفوه بسبب ذلك بأنه "له قياس في النحو ومذاهب ينفرد بها"[2] .

---

(١) ٢ : ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيرافي ٢٧ . البغية ٣٦٥ . ياقوت ٢٠ : ٦٤ . القفطي ٢ : ٣٦٥ .

ونحن عند ما نحاول أن نتبين منهج يونس في دراساته النحوية نجد أنه خاض في الأبواب النحوية: المسموعة عن العرب والفرضية التى كان النحاة يتخذون منها تدريبا عقليا لتطبيق ما يرون من قواعد نحوية. قال سيبويه عن ذا، وذى، وتا، وألا، وألاء[1]: "فاذا صار اسما عمل فيه ما عمل بـ (لا) لأنك قد حولته إلى تلك الحال كما حولت (لا). وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء. إلا أنك لا تجرى (ذا) اسم مؤنث لأنه مذكر، إلا فى قول عيسى فانه كان يصرف امرأة سميتها بعمرو. وأما (ذى) فبمنزلة (في)، و (تا) بمنزلة (لا). وأما (ألاء) فتصرفه اسم رجل وترفعه وتجره وتنصبه وتغيره كما غيرت (هيهات) لو سميت رجلا به .. " .

ونتبين في أقوال يونس أحكاما فى القياس الذى يستنبطه، واستبانة لأبعاده .. قال سيبويه[2]: "سألت يونس عن قوله: متى تقول أنه منطلق. فقال: إذا لم ترد الحكاية وجعلت (تقول) مثل (تظن) قلت: متى تقول أنك ذاهب. وإن أردت الحكاية قلت: متى تقول إنك ذاهب، كما أنه يجوز لك أن تحكى فتقول: متى تقول: زيد منطلق، وتقول: قال عمرو: إنه منطلق. فإن جعلت الهاء عمرا أوغيره فلا تعمل. قال: كما لا تعمل إذا قلت: قال عمرو: هو منطلق. فقال: لم تعمل ها هنا شيئا، وإن كانت الهاء هي القائل. كما لا تعمل شيئا إذا قلت: قال، وأظهرت هو، فقال لا تغير الكلام عن حاله قبل أن تكون فيه (قال) فيما ذكرناه .. " .

وكان عندما يضع قياسا ما يطرده ويعممه، نرى ذلك فى عدة مواضع. فنحن نقول: أعطيتكمْ ذلك، ونسكن الميم فاذا اتصل بها ضمير آخر حركناها وقلنا: أعطيتكمه وأعطيتكمها. ولكن يونس طرد القاعدة العامة، وطبقها على الحالة الثانية

---

(١) ٢ : ٤٢ .

(٢) ١ : ٤٧١ .

وقال: أعطيتكمْه، وأعطيتكمُوها. والأول أكثر وأعرف، كما يقول سيبويه[1] .

وطرد قاعدة عدم التقاء الساكنين حتى فى الحالات التى أباح العرف فيها ذلك.قال سيبويه[2]: "تقول: هذا زيد بُنىّ عمرو، فى قول أبى عمرو ويونس، لأنه لا يلتقى ساكنان. وليس بالكثير فى الكلام ككثرة (ابن) فى هذا الموضع" .

وطرد فى الممنوع من الصرف القاعدة التى تندرج تحتها الكلمات الصحيحة على الكلمات المعتلة، حتى خطأه الخليل. قال سيبويه[3]: "أما يونس فكان ينظر الى كل شىء من هذا إذا كان معرفة: كيف حال نظيره من غير المعتل معرفة، فاذا كان لا ينصرف لم يصرف، يقول: هذه جوارِى قد جاء، ومررت بجوارى قبل. وقال الخليل: هذا خطأ، لو كان من شأنهم أن يقولوا هذا فى موضع الجر لكانوا خلقاء أن يلزموها الرفع والجر إذ صار عندهم بمنزلة غير المعتل فىموضع الجر .. " .

وقد أدى به هذا الطرد للقياس إلى مخالفة المسموع من العرب فى عدة مواضع، وكان من الأسباب التى أفردته بين النحاة. علق الرمانى على القياس الأخير ليونس فقال[4]: "قياسه على المعتل أولى به، وهو جوار فى الجمع، لأن الباب كله على ياء فى آخر الاسم قبلها كسرة فيما لا ينصرف. وذلك يقتضى الحذف والعوض .. فلا وجه لمعصيته مع صحة إجرائه على منهاج واحد" .

وبالرغم من ذلك اتفق يونس مع الخليل فى كثير من الأحكام النحوية، والعلل، بل فى بعض المبادئ العامة التى كان الرجلان يترسمانها فى قواعدهما. قال

---

(١) ١ : ٣٨٩ .

(٢) ٢ : ١٤٩ .

(٣) ٢ : ٥٨ . وانظر ٧٣ .

(٤) الرمانى ٢١٥ .

سيبويه فى باب التصغير[1]: "العوض قول يونس والخليل" يريد التعويض عن الحروف المحذوفة للتصغير بحرف علة .

وكان المتوقع من رجل كيونس يميل إلى طرد ما يضع من قواعد ومقاييس أن ينفى ما يخرج عنها ويخطئه. ولكنه لم يكن يفعل ذلك، وكان يفزع إلى الضرورة الشعرية، فيرى أن الوزن هو الذى أجبر الشاعر على المخالفة .

فالدكتور أحمد أمين على حق حين يقول[2]: "فهم يقولون: إن ابن أبى إسحاق الحضرمى وتلميذه عيسى بن عمر كانا أشد ميلا للقياس، وكانا لا يأبهان بالشواذ، وكانا لا يتحرجان من تخطئة العرب. وكان أبو عمرو وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضا على عكسهما: يعظمان قول العرب، ويتحرجان من تخطئتهم" .

ويؤدى بنا هذا إلى تصديق قول القدماء حين يقولون[3]: "كان النحو أغلب عليه"، وإلى أن من وصفه فقال[4]: "بارع فى النحو" قد منحه بعض حقه، ومن ناظر بينه وبين أبى زيد الأنصارى[5] فقال: "كان يونس أعلم من أبى زيد بالنحو" قد قَصَّر به.

فأقرب الأقوال إلى ايفاء الرجل حقه ما قاله ياقوت[6]: "إمام نحاة البصرة فى عصره، ومرجع الأدباء والنحويين فى المشكلات". فقد كان فى الشطر الأول من

---

(١) ٢ : ١١٠ .

(٢) ضحى الاسلام ٢ : ٢٩٦ . وانظر السيرافى ٢٢ .والزبيدى ٢٨ . والأزهرى ٤٠ .

(٣) أبو الطيب ٢١ . الزبيدى ٤٨ . سمط اللآلى ١٩٥. المزهر ٢ : ٣٩٩ . القفطى ٢ : ٣٦٣ .

(٤) السيرافى ٢٧ . البغية ٢ : ٣٦٥ . القفطى ٢ : ٣٦٥ .

(٥) السيرافى ٤١ .

(٦) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ .

حياته ثانى اثنين فى البصرة، لا يذكر نحوى معهما، ولا يؤخذ النحو عن غيرهما: يتفقان، ويختلفان، فتصحب الحجة الخليل أكثر مما تصحب يونس. ولكنها لا تتخلى كل التخلى عن الأخير، ولا تتركه يتردى فى الحضيض. فما أُخذ عليه كان ثمرة معرفته الواسعة باللغات والنوادر: الفصيح منها والضعيف، وثمرة قياس على شيء لم يفطن إلى أنه لا يتمتع بكل صفات ما يقاس عليه، وثمرة تعميم فى مواضع لا يليق بها إلا التخصيص. ولكن الرجل بقى علما مشرقا فى بلدته، وازداد سطوعا بعد وفاة زميله، ثم انتقل علمه إلى الكوفة فكان واحدا من الينابيع الثرة التى اغترف منها أهلها. وبقيت أقواله أو أكثرها بين يدى العلماء يعودون إليها، ويعيدون النظر فيها، فيتفقون مع معاصريه آنا، ويخالفونهم أخرى، ويرون فيها الحق المغبون .